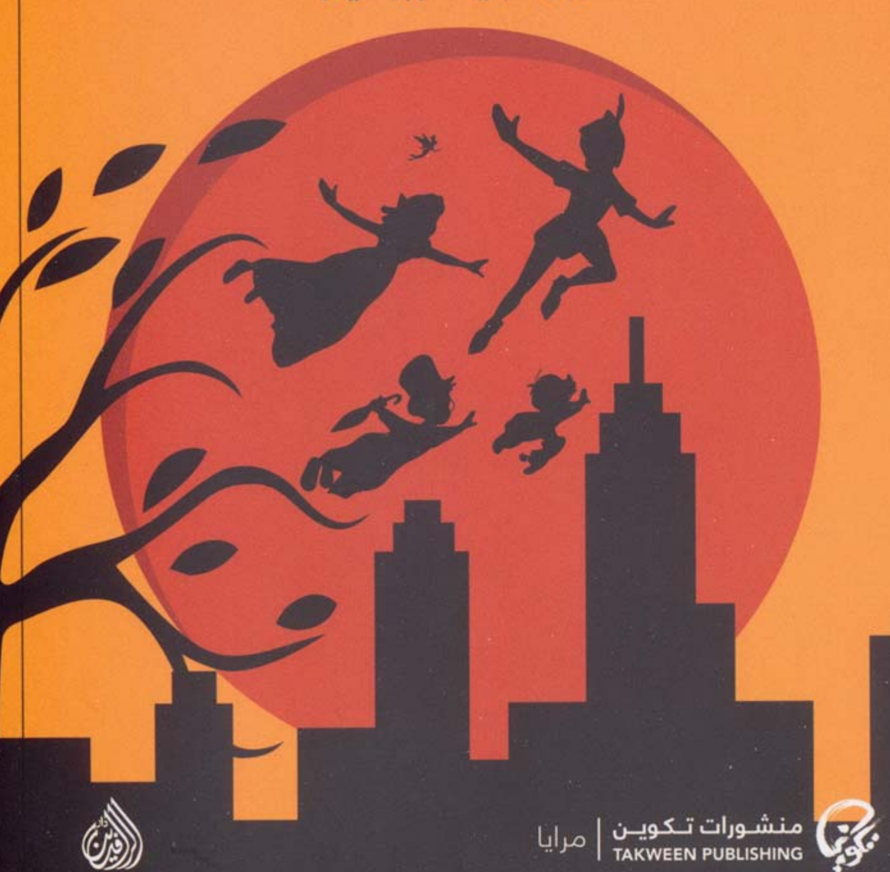
2020
4.1.2020

جيمس ماثيو باري

بيتربان

ترجمة: بثينة الإبراهيم



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا
دار الرافدين

ج. م. باري



رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم





پیتر پان

الكاتب: ج. م. باري
عنوان الكتاب: بيتر بان
ترجمة: بثينة الإبراهيم

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-08-3
الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2018
2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

مقدمة

توني ديترليزي[1]

لا بد أن تعرف أنني حين كنت في سن أصغر لم أقرأ يومًا هذه الأشياء؛ أعني هذه المقدمات والتمهيدات والتوطئات، بل كنت أريد التوجّه نحو القصة مباشرة. لم أرغب بقراءة ما يقوله شخص كبير عن تغيير هذا الكتاب لحياته، أو إحساس سيدة بأن هذه القصة تغير العالم. ولعل بيتر پان لم يكن ليطيق الجلوس والاستماع إليها إن كانت وندي تقرأها له.

كنت شديد اللهفة للاطلاع على الرسومات المعقدة والوصول إلى المغامرة. ثم إنني بعد ذلك أكون منشغلًا جدًا في التفكير بالكتاب التالي الذي أود قراءته، أو اختلاق قصصي بنفسي، أو حتى اللعب مع أصدقائي وعائلتي.

كنت أتظاهر أحيانًا بأن فراشي سفينة قراصنة، وأبدأ العراك مع أخي الأصغر، وعليه أن يهزمني ويلقي بي من الفراش إلى البحر

(١) (١٩٦٩) كاتب أمريكي لأدب الفانتازيا وأدب الطفل.

الجائع في الأسفل. وفي أحيان أخرى، كنت أستكشف الغابات القريبة متخيلًا أنني سأعثر على رأس سهم قديم، أو نيران لم تزل دافئة لمخيم الهنود الأمريكيين الأصليين. وكنت أجد نفسي في أوقات أخرى أتساءل إن كانت الحوريات يستمتعن بإغاظتنا أثناء محاولتنا معرفة من يمكنه حبس أنفاسه لوقت أطول في حمام سباحة أحد الأصدقاء. ولهذا كانت نفرلاند تبدو دومًا حقيقية جدًا، ودقيقة جدًا، حين قرئت على مسامعي لأول مرة. فقد كنت هناك مرات عديدة وعرفتها من الداخل والخارج، كما أنني واثق أنك ستفعل.

كما أنني، مثل الكثير من الأطفال الآخرين، عرفت پيتر پان جيدًا. إذ كان هو الشخص الذي أود أن أكونه؛ متعقّب التماسيح، وصديق الجنيات، وقائد الفتية التائهين، وقاتل القراصنة المرعبين بلاشك. غير أنني لم أكن سوى طفل يهوى اكتشاف نباتات نفرلاند وحيواناتها، وإدراجها في قصصي الصغيرة، بأمل أن أتمكن يومًا من الفوز بسحر كاتب موهوب بقدر ج. م. باري.

إن كنت تقرأ حكاية پيتر پان ونفرلاند هذه، أو كانت تُقرأ لك للمرة الأولى (وهذا أفضل)، فستعرف عندئذ تمامًا كل الأمور العجيبة التي يكتب عنها ج. م. باري. هذا لأن معظم الأطفال يعرفون كيف يطيرون، ويعرفون أن الجنيات حقيقيات، ويعرفون أن پيتر سينقذهم حين يكونون بحاجة للنجدة.

لسوء الحظ، تأخذ معظم ذكريات طفولتنا، مثل پيتر نفسه، بالخفوت والزوال كلما كبرنا. إذ تذكرنا الصحف كل يوم بكل

الأسباب التي تجعل من كون المرء «راشدًا مسؤولًا» هو طموحنا الوحيد في الحياة. غير أن الحكايات لحسن الحظ، مثل التي توشك على قراءتها، تذكرنا بالمهم. وحتى إن لم تعد تذكر كيف تطير إلى نڤرلاند، سيأتي پيتر پان دومًا لإنقاذك إن أردته أن يفعل. وكل ما تحتاجه هو أن تؤمن.

والآن انظر إلى ما فعلته أنا؛ لقد مضيت بالحديث عن تغيير هذه الحكاية لحياتي وأن بإمكانها صون وحدة المجتمع. لكنك لست بحاجة لقراءة أفكاري المبعثرة، بل تحتاج إلى الذهاب في مغامرتك. امض قدمًا! وابدأ! فأنت تعرف الطريق مسبقًا، خذ المنعطف الثاني من اليمين، وامض للأمام حتى الصباح، ولن تضيع الدرب.

وأبلغ پيتر پان التحية مني، وكأنه سيذكرني.

الفصل الأول
دخول پيتر پان

كل الأطفال كبروا، ما عدا واحدًا. إنهم يعرفون منذ وقت مبكر أنهم سيكبرون، وإليك كيف عرفت وندي بذلك. فقد كانت تلعب في حديقة ذات يوم حين كانت في الثانية من عمرها، وقطفت زهرة أخرى وجرت بها إلى أمها. أظنها كانت تبدو فاتنة جدًا، ذلك أن السيدة دارلنغ وضعت يدها على قلبها وصاحت «أوه، لمَ لا يمكنك أن تظلي هكذا إلى الأبد؟!» كان هذا كل ما قيل بينهما حول الموضوع، غير أن وندي عرفت منذئذٍ أنها ستكبر. فالمرء يعرف ذلك دومًا بعد أن يبلغ العامين من عمره، وسن الثانية هو بداية النهاية.

لقد عاشوا طبعًا في المنزل رقم ١٤. وكانت الأم هي الأهم حتى ولادة وندي، فقد كانت سيدة جميلة، ذات عقل عاطفي وثغر ساخر حلو. وأما عقلها العاطفي، فقد كان مثل الصناديق الصغيرة القادمة من الشرق الغريب، واحد داخل آخر، ومهما اكتشفت منها، يظل هناك آخر دومًا. وقد كان لثغرها الساخر العذب قبلة واحدة لم تحصل عليها وندي أبدًا، رغم وجودها بوضوح تمامًا على الزاوية اليمنى.

أما كيف فاز بها السيد دارلنغ، فالأمر كالتالي. اكتشف الرجال المهذبون الكثيرون في الوقت نفسه، الذين كانوا فتيانًا حين كانت هي فتاة، أنهم يحبونها، فجروا إلى بيتها لخطبتها، ما عدا السيد دارلنغ الذي استقل سيارة أجرة ودخل مسرعًا قبل الجميع، ففاز بها. فاز بها كلها باستثناء الصندوق الأعمق والقبلة. لم يعرف يومًا بأمر الصندوق، وقد تخلى عن محاولة الحصول على القبلة بمرور الوقت. ظنت وندي أن ناپوليون كان سيحصل عليها، إلا أنني أتخيله يحاول ثم يغادر متألمًا، صافقًا الباب.

اعتاد السيد دارلنغ التباهي أمام وندي بأن أمها لا تحبه فحسب، بل تحترمه أيضًا. فقد كان واحدًا من أولئك الرجال الماكرين، الذين يفهمون أمور الأسهم والحصص. لا أحد يعرف حقيقة ذلك طبعًا، لكن بدا أنه يعرف وكان يقول كثيرًا إن الأسهم ارتفعت والحصص انخفضت بطريقة تجعله ينال احترام أي امرأة.

تزوجت السيدة دارلنغ مرتدية الأبيض، وقد اعتنت بالحسابات جيدًا في بادئ الأمر، وبجذل كأن الأمر كان لعبة، ولم يكن من الغريب أن تغفل تدوين حساب براعم الملفوف، بل إنها غفلت عن كامل ثمار القرنبيط. وعوضًا عنها وضعت صورًا لأطفال بلا وجوه، فتتخيلهم حين يتعين عليها عقابهم. كانت هذه خيالات السيدة دارلنغ[1].

(١) كانت السيدة دارلنغ تطمح أن تكون ربة منزل مثالية، وحاولت جاهدة إسعاد زوجها فتولت الاعتناء بمصروفات البيت واحتياجاته، ثم صارت تتوق بعد ذلك إلى إنجاب الأطفال وتتخيل حياتها معهم، فغدت مهملة في شأن تدوين النفقات.

جاءت وندي أولًا، ثم جون، ثم مايكل.

بعد ولادة وندي بأسبوع أو اثنين، ظل الأمر محل شك إن كانا سيبقيانها أم لا، لأنها كانت فمًا آخر بحاجة لإطعام. كان السيد دارلنغ شديد الفخر بها، إلا أنه كان وقورًا جدًا وكان يجلس على طرف فراش السيدة دارلنغ، ممسكًا بيدها ويحسب النفقات، وهي تنظر إليه بتوسل. إذ كانت ترغب بالمجازفة، أيًا كان ما سيحدث، لكن ذلك لم يكن أسلوبه، بل كان أسلوبه الإمساك بقلم رصاص وورقة، وكان يضطر للبدء من جديد كلما شوشت عليه باقتراحاتها.

«لا تقاطعيني الآن»، كان يتوسل إليها، «پاوند وسبعة عشر شلنًا هنا، وپاوند وستة شلنات في المكتب، وبوسعي أن أتخلى عن قهوة المكتب، ولنقل عشرة شلنات، هذا يعني أن المجموع پاوندان وتسعة شلنات وستة پنسات، بالإضافة إلى نقودك التي تبلغ ثمانية عشر شلنًا وثلاثة پنسات، يصير المجموع ثلاثة پاوندات وتسعة شلنات وسبعة پنسات، مضافًا إليها خمسة ورقات نقدية في حسابي المصرفي، هذا يعني أن المجموع ثمانية پاوندات وتسعة شلنات وسبعة پنسات -من الذي يتحرك؟- ثمانية وتسعة وسبعة، ننقص منها سبعة -لا تتحدثي يا عزيزتي- والپاوند الذي أقرضتِه للرجل الذي جاء إلى الباب -أهدئي أيتها الطفلة- ننقص منها طفلة، ها قد فعلتِها! هل قلت تسعة پاوندات وتسعة شلنات وسبعة پنسات؟ أجل، تسعة تسعة سبعة، والسؤال الآن؛ هل بوسعنا أن نجرب العيش بتسعة پاوندات وتسعة شلنات وسبعة پنسات لعام؟».

«بوسعنا ذلك طبعًا يا جورج»، صاحت. غير أنها كانت منحازة لجانب وندي، وكان هو حقًا صاحب الكلمة العليا بين الاثنين.

حذرها متوعدًا وهو يغادر ثانية: «تذكري النكاف. إن النكاف يكلف پاوندًا واحدًا، وهذا ما أفترضه غير أنني أخشى أن يكلف أكثر من ذلك بثلاثين شلنًا -لا تتحدثي- والحصبة تكلف پاوندًا وخمسة شلنات، والحصبة الألمانية نصف جنيه، وهذا يعني -لا تلوحي بإصبعك- والسعال الديكي لنقل خمسة عشر شلنًا..». وهكذا مضى الحديث، وقد تضاعف في كل مرة، لكن وندي اجتازت الأمر في النهاية، وقد كلف النكاف اثني عشر شلنًا وستة پنسات، وعولج نوعا الحصبة علاجًا واحدًا.

وحدث التوتر نفسه مع قدوم جون، وحظي مايكل بفرصة أقل، غير أنهم احتفظوا بكليهما، ولك أن ترى ثلاثتهم يمشون في صف إلى روضة السيدة فولسم، تصحبهم مربيتهم.

أحبت السيدة دارلنغ أن تكون الأمور في نصابها الصحيح، وشُغِف السيد دارلنغ بأن يكون مثل جيرانه تمامًا، ولهذا كان لديهم مربية طبعًا. ولأنهم كانوا فقراء ومدينين بثمن الحليب الذي يشربه الأطفال، لم تكن هذه المربية سوى كلبة كبيرة تدعى نانا، ليست ملكًا لأحد بعينه حتى أخذها آل دارلنغ. كانت تؤمن دومًا أن الأطفال مهمين، وقد تعرف عليها آل دارلنغ في كنغزتن غاردنز، حيث كانت تمضي جل وقت فراغها تسترق النظر إلى عربات الأطفال، وكانت مكروهة بشدة من المربيات المهملات اللاتي تتبعهن إلى

منازلهن وتشتكي منهن لسيداتهن. وقد أثبتت أنها مربية كفؤة، وأنها ماهرة في وقت الاستحمام، كما أنها تستيقظ في أي وقت من الليل إن أصدر أحد صغارها صرخة خافتة. كان وِجارها في غرفة الأطفال طبعًا، وكانت ماهرة في معرفة إن كان السعال أمرًا لا يجوز الصبر عليه ومتى تدعو الحاجة إلى لف جورب حول الحلق. وقد آمنت حتى آخر أيامها بالعلاجات قديمة الطراز مثل ورقة نبات الراوند، وظلت تطلق أصوات امتعاض من حديث البدع عن الجراثيم وغيرها. كانت رؤيتها ترافق الأطفال إلى المدرسة درسًا في اللياقة، وهي تمشي برزانة قربهم حين يتصرفون على نحو حسن، وتركلهم من الخلف للعودة إلى الصف إن ضلوا الطريق. لم تنس يومًا كنزة جون في أيام مباريات كرة القدم، كما أنها تحمل مظلة في فمها دومًا تحسبًا للمطر. في مدرسة الآنسة فولسم قبو تجلس فيه المربيات، اللاتي يجلسن باعتدال، في حين أن نانا كانت تضطجع على الأرض، لكن هذا هو الفارق الوحيد. وقد كن ميالات إلى تجاهلها كأنها كانت من طبقة اجتماعية أدنى منهن، وكرهت هي حديثهن التافه. كانت تكره زيارات صديقات السيدة دارلنغ إلى غرفة الأطفال، ولكنها كانت أولًا، عند قدومهن، تخلع مريلة مايكل وتلبسه تلك الأخرى التي لها أشرطة زرقاء، وترتب وندي وتمسح شعر جون.

لم يكن لحضانة أن تمضي أفضل من هذا النحو، والسيد دارلنغ يعرف ذلك غير أن القلق ساوره أحيانًا خشيةً من حديث الجيران.

فقد كان له وظيفة معتبرة في المدينة.

كما أن نانا أزعجته بطريقة أخرى، إذ كان يراوده شعور أحيانًا بأنها لا تحبه. «أنا متأكدة من أنها تحبك بشدة يا جورج»، كانت السيدة دارلنغ تؤكد له، ومن ثم تشير للأطفال ليكونوا لطيفين مع أبيهم. كان يتبع ذلك رقصات جميلة يُسمح للخادمة الأخرى ليزا بالانضمام إليها أحيانًا. كانت تبدو قزمة بتنورتها الطويلة وقبعة الخادمة، رغم أنها أقسمت عند تعيينها أنها لن تشهد سن العاشرة ثانية[1]. يا لبهجة هؤلاء اللاهين! كان الأشد مرحًا بين الجميع هي السيدة دارلنغ، التي كانت تدور على قدم واحدة بصخب حتى لتظهر القبلة منها، ولعلك تفوز بها لو جريت إليها سريعًا. ما من عائلة كانت أبسط وأسعد من هذه العائلة، حتى قدوم پيتر پان.

سمعت السيدة دارلنغ بأمر پيتر أول مرة حين كانت ترتب عقول صغارها. تلك هي العادة الليلية التي تمارسها كل أم صالحة بعد أن ينام أطفالها لتنقب بدقة في أذهانهم وتضع الأمور في نصابها من أجل الصباح التالي، واضعة الأشياء الكثيرة التي كانت تجول طوال النهار في أماكنها الصحيحة. إن استطعت أن تبقى مستيقظًا (وهو ما لن تستطيعه طبعًا) سترى أمك تفعل هذا، وستجد مراقبتها أمرًا ممتعًا. إن الأمر يشبه ترتيب الأدراج تمامًا، إذ تراها جالسة على ركبتيها، كما أظن، تتأمل بمرح ببعض أفكارك، متسائلة من أين التقطت هذا، واقعة على اكتشافات حلوة وليست حلوة، ضاغطة هذا إلى وجنتها كأنه هريرة صغيرة، ومبعدة ذاك بسرعة عن ناظرها. حين تستيقظ

---

(١) ليزا فتاة صغيرة، لذا كان عليها أن تقسم عند تعيينها أنها تجاوزت العاشرة من العمر، وهذا معنى قولها إنها لن تشهد سن العاشرة ثانية.

صباحًا، تكون الأحاسيس الشريرة والمشاكسة التي أويت بها إلى الفراش قد طُويت وصارت صغيرة ووضعت في أسفل عقلك، وفي الأعلى، نُشرت أجمل أفكارك، بعد تهويتها بعناية، جاهزة بانتظارك لترتديها.

لست أدري إن كان قد سبق لك رؤية خارطة للعقل البشري. يرسم الأطباء أحيانًا خرائط لأجزاء أخرى من جسدك، وقد تكون خارطتك مثيرة للغاية، ولكن انظر إليهم وهم يحاولون رسم خارطة لعقل طفل، العقل الذي لا يكون مشوشًا فحسب، بل يواصل الدوران أيضًا. ثمة خطوط متعرجة فيه، مثل درجات حرارتك على البطاقة، وهذه على الأرجح هي طرق الجزيرة؛ لأن نڤرلاند[1] هي جزيرة، بصورة ما، ذات لطخ مدهشة من الألوان هنا وهناك، والشعاب المرجانية والمركب الأنيق المظهر في عرض البحر، والمتوحشين والمخابئ المنعزلة والأقزام الذين يكونون خياطين غالبًا، والكهوف التي يجري فيها النهر، والأمراء الذين لهم ستة أخوة كبار، والكوخ سريع الخراب، والسيدة المسنة الضئيلة ذات

(١) استخدم مصطلح Never-Never Land أول مرة في القرن التاسع عشر للإشارة إلى المناطق غير المأهولة بالسكان في أستراليا، وما زالت تستخدم حتى اليوم لوصف المناطق البعيدة في تلك البلاد. ثم حين نشر باري مسرحيته اختصر الاسم إلى Never-land وهي الجزيرة التي يسكنها بيتر مع الفتية التائهين. قد يفسر المصطلح بوصفه أمرًا «لا تهبط أبدًا»، لكنها قد تشير أيضًا إلى أرض الموتى، أي الأطفال الذين يموتون صغارًا. ربما صورت هذه الجزيرة على شاكلة جزيرة تير نا نوغ أبرز جزر العالم الآخر في الأساطير الإيرلندية، وهي جزيرة لا يمكن تحديد موقعها على الخارطة، ويمكن للفانين الوصول إليها بدعوة من الجنيات اللاتي يسكنّ فيها. (بيتر پان، ج. م. باري، شرح وتعليق ماريا تاتار، نسخة الذكرى المئوية، و. و. نورتن وشركاه، ٢٠١١).

الأنف المعقوف. ستكون خارطة سهلة لو أنها اقتصرت على هذا، غير أن فيها أيضًا اليوم الأول في المدرسة والدين والآباء والبِركة المستديرة وأعمال الإبرة والجرائم والإعدامات بالشنق والأفعال التي تتعدى إلى المفعول به ويوم حلوى الشوكولاته، وارتداء حمالة البنطال، وقول تسع وتسعين، وثلاثة پنسات لاقتلاع سنك من فمك بنفسك، وغيرها. وسواء أكان كل واحد من هذه جزءًا من الجزيرة، أم خارطة أخرى تظهرها فهي كلها مربكة بالأحرى، لأن لا شيء منها سيظل ساكنًا.

لا شك أن جزر نفرلاند شديدة التنوع، فنفرلاند جون مثلًا فيها بحيرة تطير فوقها طيور النحّام التي كان جون يطلق عليها النار، أما مايكل الذي كان صغيرًا جدًا فلديه طير نحام تحلق فوقه البحيرات. عاش جون في قارب مقلوب على الرمال، ومايكل في كوخ مستدير مثل كوخ الهنود الحمر، أما وندي فقد سكنت في بيت من أوراق الشجر المخيطة بأناقة. لم يكن لجون أصدقاء، أما مايكل فكان له أصدقاء ليليون، وكان لوندي ذئب أليف هجره أبواه. غير أن كل جزر نفرلاند فيها صورة للعائلة، ولو وقفوا في صف فيمكنك أن تقول إن أنوفهم متشابهة، وهلم جرًا. على هذه السواحل السحرية يسحب الأطفال أثناء لعبهم زوارقهم إلى الشاطئ. لقد كنا هناك نحن أيضًا، وما زال بوسعنا سماع صوت الموج رغم أننا لن نصل اليابسة ثانية.

إن نفرلاند هي الجزيرة الأكثر انعزالًا وصغرًا بين الجزر الممتعة، فهي ليست كبيرة وممتدة بالمسافات المضجرة بين المغامرة

والأخرى كما تعلم، لكنها مزدحمة ازدحامًا سارًّا. حين تلعب فيها نهارًا بالكراسي ومفرش الطاولة، فلن تكون مرعبة البتّة. لكنها تصبح حقيقية للغاية قبل ذهابك إلى النوم بدقيقتين، ولهذا وجدت المصابيح الليلية.

كانت السيدة دارلنغ تجد باستمرار أثناء تجوالها في عقول أطفالها أشياء لا يمكنها فهمها، وقد كان اسم پيتر أكثرها إرباكًا. فلم تكن تعرف أحدًا باسم پيتر، ومع ذلك كان يجول في عقل كل من جون ومايكل، وأخذ ينحفر في ذهن وندي. كان الاسم يظهر بحروف أعرض من حروف الكلمات الأخرى، وكلما أمعنت السيدة دارلنغ النظر به، شعرت أن له هيئة المعتد بنفسه على نحو يثير الحيرة.

«أجل، إنه مزهو بنفسه بعض الشيء»، قالت وندي بأسف.

أخذت أمها تستجوبها.

«ولكن من هو يا صغيرتي؟».

«إنه پيتر پان، أنت تعرفينه يا أمي».

لم تعرفه السيدة دارلنغ في بادئ الأمر، ولكن بعد استرجاع ذكريات طفولتها تذكرت أحدًا يدعى پيتر پان قيل إنه يعيش مع الجنيات. ثمة حكايات غريبة كثيرة عنه، مثل تلك التي تقول إنه يرافق الأطفال لقسم من الدرب حين يموتون، حتى لا يخافوا. كانت تؤمن بوجوده في ذاك الزمن، إلا أنها الآن بعد أن تزوجت وصارت عاقلة ارتابت في وجود شخص مثله.

قالت لوندي: «كما أنه لا بد قد كبر بعد مرور هذا الوقت».

«أوه كلا، إنه ليس كبيرًا»، أكدت لها وندي بثقة، «كما أنه بمثل حجمي». كانت تعني أنه بمثل حجمها عقلًا وجسدًا، ولم تعرف كيف عرفت ذلك غير أنها عرفته فحسب.

شاورت السيدة دارلنغ زوجها غير أنه ابتسم نافد الصبر وقال: «أصغي إليّ. لا بد أنه هراء ملأت نانا رؤوسهم به؛ من النوع الذي تفكر به الكلاب. لا تلقي له بالًا، وسيزول».

غير أنه لم يزل، وسرعان ما أحدث الصبي المشاكس صدمة للسيدة دارلنغ.

إن الأطفال يقومون بأغرب المغامرات دون أن يتعرضوا للمتاعب. فقد يتذكّرون مثلًا أن يتحدثوا، بعد انقضاء أسبوع على الحدث، عن ذهابهم إلى الغابة ولقائهم بأبيهم الراحل ولعبهم معه. كان الأمر هكذا حين أفضت وندي ذات صباح ببوح مقلق. إذ عثر على أرضية غرفة الأطفال على بعض أوراق الشجر التي لم تكن هنالك حتمًا حين خلد الأطفال للفراش، وحين حارت السيدة دارلنغ بأمرها قالت وندي بابتسامة حانية:

«لا بد أن بيتر فعلها ثانية!».

«ماذا تعنين يا وندي؟».

«إنه ليس سلوكًا لائقًا منه ألا ينظف»، قالت وندي متنهدة إذ كانت فتاة مرتبة.

وأوضحت لأمها بأسلوب جاد أنها تظن أن پيتر يأتي أحيانًا إلى الغرفة ليلًا ويجلس أسفل فراشها ويعزف بمزماره. غير أنها لا تستيقظ أبدًا لسوء الحظ، لذا فإنها لا تدري كيف عرفت بذلك، إنها تعرفه فحسب.

«أي هراء هذا الذي تقولينه يا أميرتي؟ لا يمكن لأحد أن يدخل المنزل دون أن يطرق الباب».

«أظنه يأتي من النافذة»، قالت.

«إنها تعلو ثلاث طبقات يا حبيبتي».

«ألم تكن أوراق الشجر أسفل النافذة يا أمي؟».

كان ذلك صحيحًا، فقد عثر على أوراق الشجر قرب النافذة.

لم تدرِ السيدة دارلنغ بمَ تفكر، لأن الأمر برمته بدا طبيعيًا جدًا لوندي، حتى أنها لم تستطع أن تصرف نظرها عنه بالقول إنها كانت تحلم.

فصاحت الأم: «لمَ لمْ تخبريني بكل هذا من قبل يا صغيرتي؟».

«لقد نسيت»، قالت وندي بلامبالاة، إذ كانت في عجلة من أمرها لتتناول إفطارها.

أوه، لا بد أنها كانت تحلم.

لكن من ناحية أخرى، كانت أوراق الشجر موجودة. تفحصتها السيدة دارلنغ بعناية، كانت أوراقًا جافة، لكنها كانت واثقة أنها

ليست أوراقًا لشجر ينمو في إنجلترا. حبت على الأرض وأمعنت النظر فيها حاملة شمعة بحثًا عن آثار أقدام غريبة. وحركت المسعر في المدخنة وربتت على الجدران، وأنزلت شريطًا من النافذة حتى الرصيف، فكان الانحدار حادًا بعمق ثلاثين قدمًا، دون وجود شيء يعين على التسلق سوى مزراب.

لا بد أن وندي كانت تحلم.

غير أن وندي لم تكن تحلم، كما أثبتت الليلة التالية، الليلة التي يمكن القول إن المغامرة الرائعة لهؤلاء الأطفال قد بدأت فيها.

خلد الأطفال جميعهم إلى الفراش مرة أخرى في الليلة التي نتحدث عنها. وصادف أنها كانت ليلة إجازة نانا، فحممتهم السيدة دارلنغ وغنت لهم حتى تركوا يدها واحدًا تلو الآخر وابتعدوا في أرض الأحلام.

بدوا جميعًا آمنين ومرتاحين حتى أنها ابتسمت ساخرة من مخاوفها وجلست قرب النار بهدوء لتخيط.

كانت تخيط شيئًا لمايكل، الذي سيرتدي سروالًا قصيرًا في عيد ميلاده. كانت النار دافئة، على أية حال، وغرفة الأطفال مضاءة بالمصابيح الليلية الثلاثة وعدة الخياطة في حجر السيدة دارلنغ. ثم أخذ رأسها ينوس، أوه، بشدة. فغطت في النوم. انظروا إلى أربعتهم، وندي ومايكل هناك، وجون هنا، والسيدة دارلنغ قرب النار. كان يتعين عليهم وضع مصباح ليلي رابع.

رأت حلمًا أثناء نومها، إذ رأت أن نفرلاند غدت قريبة جدًا وأن ولدًا غريبًا قد جاء منها. لم تخف منه، لأنها ظنت أنها رأته من قبل في وجوه الكثير من النسوة اللاتي لم ينجبن، وربما وجد في وجوه بعض الأمهات أيضًا. غير أنه في حلمها قد شق الغشاوة التي تحجب نفرلاند، ورأت وندي وجون ومايكل يختلسون النظر من الفجوة.

كان الحلم بحد ذاته تافهًا، غير أن نافذة الأطفال فتحت أثناء حلمها، وقفز ولد إلى الداخل. كان يرافقه ضوء غريب، لا يزيد حجمًا عن راحة اليد، حام في الغرفة مثل كائن حي، وأظن أن هذا الضوء هو الذي أيقظ السيدة دارلنغ.

فنهضت صارخة ورأت الصبي، وعرفت على الفور أنه پيتر پان. لو كنت أنت أو أنا أو وندي موجودين هناك لرأينا أنه كان شديد الشبه بقبلة السيدة دارلنغ. كان صبيًا جميلًا يرتدي الأوراق الجافة والعصارات التي ترشح من الشجر، إلا أن أكثر الأمور فتنة فيه أسنانه اللبنية، وحين رأى أنها بالغة، صرّ لها بأسنانه اللؤلؤية.

الفصل الثاني
الظل

صرخت السيدة دارلنغ، وكما يحدث عند الرد على جرس الباب، انفتح الباب ودخلت نانا بعد قضائها الأمسية خارجًا. هرّت ثم وثبت على الصبي الذي قفز برشاقة من النافذة. صرخت السيدة دارلنغ مرة أخرى، وصرخت بضيق هذه المرة لأنها ظنت الصبي قُتل، وجرت إلى الشارع لتبحث عن جثته الصغيرة، غير أنها لم تكن موجودة، فرفعت نظرها، ولم تستطع رؤية شيء في سماء الليل السوداء سوى ما ظنته شهابًا.

عادت إلى غرفة الأطفال، ووجدت نانا تحمل شيئًا في فمها، تبين أنه ظل الصبي. إذ حين قفز الصبي من النافذة، أغلقتها نانا بسرعة لم تكن كافية للإمساك بالصبي لكن ظله لم يكن سريعاً، إذ انغلقت النافذة بقوة وانتزعته من الصبي.

لك أن تتأكد من تفحص السيدة دارلنغ للظل بعناية، غير أنه كان ظلًا عاديًا.

لم يساور نانا أي شك في أفضل ما يُفعل بهذا الظل، فقد علقته

خارج النافذة قاصدة «أنه لا بد سيعود من أجله، لنضعه هنا ليتمكن من أخذه بسهولة دون الحاجة لإزعاج الأطفال».

إلا أن السيدة دارلنغ للأسف لم تستطع تركه معلقًا خارج النافذة، فقد بدا شديد الشبه بالغسيل المنشور وكان ذلك يقلل من شأن المنزل. فكرت بعرضه على السيد دارلنغ، إلا أنه كان يحسب تكلفة المعاطف الشتائية الثقيلة من أجل جون ومايكل، واضعًا منشفة مبللة على رأسه ليبقي ذهنه صافيًا، وبدا من المحرج إزعاجه، كما أنها عرفت تمامًا ما سيقوله: «لقد حدث ذلك كله بسبب تعييننا كلبة لتكون مربية».

فقررت أن تلف الظل وتضعه في الدرج بحرص، إلى أن تسنح فرصة مناسبة لإخبار زوجها. ويلي!

سنحت الفرصة بعد أسبوع، في الجمعة التي لا تنسى. كان يوم جمعة بلا شك.

«علي أن أكون حذرة للغاية يوم الجمعة تحديدًا»، كانت تقول دومًا لزوجها بعد ذلك، في حين كانت نانا على جانبها الآخر تمسك بيدها.

«كلا، كلا»، يقول السيد دارلنغ دومًا، «أنا مسؤول عن ذلك كله. أنا، جورج دارلنغ، فعلتها. إنني مذنب، أقر بذنبي». لقد تلقى تعليمًا رفيع المستوى.

جلسا على هذا النحو ليلة بعد أخرى يتذكران تلك الجمعة

المشؤومة، وقد انطبع كل تفصيل منها في ذهنيهما، حتى برز من الطرف الآخر مثل وجهين لعملة زائفة.

«لو أنني لم أقبل تلك الدعوة إلى العشاء في المنزل ٢٧»، قالت السيدة دارلنغ.

«لو أنني لم أسكب دوائي في وعاء نانا»، قال السيد دارلنغ.

«لو أنني تظاهرت بأني أحب الدواء»، قالت عينا نانا المخضلتان بالدمع.

«إنه حبي للحفلات يا جورج».

«إنها موهبتي المشؤومة في المزاح يا عزيزتي».

«إنها حساسيتي إزاء صغائر الأمور يا سيدي وسيدتي العزيزين».

ثم ينهار واحد أو أكثر منهم تمامًا؛ وتنهار نانا لفكرة «هذا صحيح، هذا صحيح، لم يكن عليهم تعيين كلبة لتكون مربية». لقد كان السيد دارلنغ هو من يجفف عيني نانا بالمنديل كثيرًا.

«ذلك العفريت!»، كان السيد دارلنغ يصرخ، وتردد نانا قوله بنباح، لكن السيدة دارلنغ لم توبخ بيتر أبدًا، وقد كان في زاوية فمها اليسرى شيء أرادها ألا تنعت بيتر بتلك الصفات.

كانوا يجلسون في غرفة الأطفال الخالية، ويتذكرون بحب كل تفصيل صغير من تلك الأمسية المروّعة. لقد بدأت بهدوء شديد، تمامًا مثل المئات من الأماسي الأخرى، إذ تملأ نانا الحوض لحمام مايكل وتحمله إليه على ظهرها.

«لن أخلد إلى النوم»، صاح مثل طفل ما زال يظن أن له الكلمة الفصل في الموضوع. «لن أفعل، لن أفعل يا نانا. الساعة لم تبلغ السادسة بعد. يا إلهي يا إلهي، لن أحبك بعد اليوم يا نانا. أقول لك إنني لن أستحم، لن أفعل، لن أفعل».

ثم دخلت السيدة دارلنغ، مرتدية ثوبها المسائي الأبيض. لقد ارتدت ثيابها مبكرة لأن وندي تحب كثيرًا رؤيتها في ثيابها المسائية، واضعة القلادة التي أهداها لها جورج. كانت تضع سوار وندي حول ذراعها، فقد طلبت استعارته منها. وكانت وندي تحب كثيرًا أن تقرض سوارها لأمها.

وجدت طفليها الكبيرين يمثلان دورها ودور أبيهما في حفلة عيد ميلاد وندي، وكان جون يقول:

«أنا سعيد لإبلاغك يا سيدة دارلنغ أنك أم الآن»، بنبرة الصوت نفسها التي قال فيها السيد دارلنغ هذه الكلمات في المناسبة الحقيقية.

رقصت وندي فرحة، كما فعلت السيدة دارلنغ الحقيقية.

ثم ولد جون، بتلك الخيلاء الفائضة التي عزاها لولادة ذكر، وجاء مايكل من حمامه ليطلب أن يولد أيضًا، إلا أن جون قال بقسوة إنهما لا يرغبان بالمزيد.

أوشك مايكل على البكاء: «لا أحد يحبني»، قال، ولم تطق السيدة التي ترتدي الثوب المسائي سماع ذلك طبعًا.

«أنا أفعل»، قالت، «وأريد طفلًا ثالثًا بشدة».

«ولدًا أم بنتًا؟»، سأل مايكل بلا كبير أمل.

«ولد».

ثم قفز بين ذراعيها. إنه أمر صغير يتذكره كل من السيدة والسيدة دارلنغ ونانا، إلا أنه ليس صغيرًا جدًا إن كانت تلك آخر ليلة لمايكل في غرفة الأطفال تلك.

استمرا بذكرياتهما.

«عندها هرعت داخلًا مثل إعصار، أليس كذلك؟». كان السيد دارلنغ يقول، لائمًا نفسه، وقد كان مثل الإعصار حقًا.

ربما وجدنا له بعض العذر. فقد كان هو أيضًا مرتديًا ثيابه للذهاب إلى الحفلة، وكل شيء مضى على ما يرام بالنسبة إليه حتى وصل إلى ربطة عنقه. إنه لأمر عجيب قول هذا، غير أن هذا الرجل، رغم معرفته بالأسهم والحصص، لم يكن ماهرًا في عقد ربطة عنقه. كانت تنصاع له أحيانًا بلا جهد، لكن تمر أوقات تكون الأمور فيها أفضل للبيت لو أنه ابتلع كبرياءه واستخدم ربطة عنق جاهزة!

كان هذا أحد تلك الأوقات. فقد دخل مسرعًا إلى غرفة الأطفال حاملًا وحشًا صغيرًا مجعدًا لربطة عنق في يده.

«عجبًا، ما الأمر يا أبتِ؟».

«الأمر!»، صاح، لقد صاح فعلًا، «هو ربطة العنق هذه، أنا لا أستطيع عقدها»، ثم صار ساخرًا بمرارة، «ليس حول عنقي! حول

عمود السرير! آه، أجل، لقد عقدتها عشرين مرة تقريبًا حول عمود السرير، لكن حول عنقي، كلا! أوه يا إلهي، كلا، إنها ترفض ذلك!».

ظن أن السيدة دارلنغ لم تتأثر كثيرًا، فواصل عابسًا: «أحذرك من هذا أيتها الأم، إن لم تنعقد هذه الربطة حول عنقي فلن نذهب للعشاء الليلة، وإن لم أذهب إلى العشاء الليلة، فلن أذهب للمكتب أبدًا. وإن لم أذهب للمكتب ثانية، سنتضور جوعًا أنا وأنت، وسيُلقى بأطفالنا إلى الشارع».

غير أن السيدة دارلنغ كانت هادئة حتى بعد هذا، وقالت «دعني أجرب يا عزيزي»، وقد كان هذا فعلًا ما جاء يطلب منها فعله، وبيديها الجميلتين الباردتين عقدت ربطة عنقه، بينما وقف الصغار حولهما ليروا مصيرهم. كان بعض الرجال سيشعرون بالاستياء منها لأنها عقدتها بسهولة، إلا أن السيد دارلنغ كان بمزاج طيب للغاية لفعل ذلك، فشكرها بلا مبالاة وقد نسي غضبه على الفور، وأخذ يرقص في اللحظة التالية في أرجاء الغرفة حاملًا مايكل على ظهره.

«كم لهونا بمرح!»، قالت السيدة دارلنغ وهي تتذكر ذلك.

«لهونا الأخير!»، ناح السيد دارلنغ.

«أوه جورج، هل تذكر ما قاله لي مايكل فجأة، «أمي كيف عرفتني يا أمي؟»».

«أذكر!».

«لقد كانوا أثيرين جدًا، ألا ترى ذلك يا جورج؟».

«وقد كانوا أولادنا، أولادنا، وقد رحلوا الآن».

انتهى المرح بظهور نانا، وقد اصطدم بها السيد دارلنغ لسوء الحظ، فتغطى بنطاله بالشعر. لم يكن بنطالًا جديدًا فحسب، بل كان أول بنطال له شريطان على جانبيه يملكه، واضطر للعض على شفتيه ليتفادى البكاء. نظفته السيدة دارلنغ بالفرشاة بلا شك، لكنه أخذ يتحدث ثانية عن خطئهم في الاحتفاظ بالكلبة لتكون مربية.

«إن نانا كنز ثمين يا جورج».

«بلا شك، إلا أن شعورًا مزعجًا يراودني أحيانًا بأنها تنظر إلى الأطفال مثل الجراء».

«أوه كلا، يا لعزيزتنا، أنا متأكدة من أنها تعرف أن لهم أرواحًا».

قال السيد دارلنغ متأملًا: «أشك، أشك». لقد كانت فرصة، كما ظنت زوجته، لإخباره بأمر الصبي. لقد سخر من القصة في بادئ الأمر، ثم تجهم حين عرضت زوجته الظل عليه.

قال متفحصًا الظل بعناية: «إنه ليس لأحد أعرفه. لكنه يبدو ماكرًا».

قال السيد دارلنغ «كنا لم نزل نناقش الأمر، إن كنت تذكرين، حين دخلت نانا حاملة دواء مايكل. لن تحملي زجاجة الدواء في فمك ثانية يا نانا، وكل هذا خطئي أنا».

وبرغم أنه كان رجلًا قويًا، فإنه يتصرف أحيانًا بحماقة حيال

الدواء. فإن شعر بتوعك، تبادر إلى ذهنه أن هذا عائد لتناوله الدواء بجسارة طوال حياته، وها هو حين تفادى مايكل ملعقة الدواء الذي تحمله نانا في فمها قال له مؤنبًا «كن رجلًا يا مايكل».

«لا أريد، لا أريد»، صاح مايكل بنزق، فغادرت السيدة دارلنغ الغرفة لتجلب له قطعة شوكولاته، ووجد السيد دارلنغ أن هذا يستدعي الحزم.

«لا تدلليه أيتها الأم»، ناداها. «حين كنت بعمرك يا مايكل، كنت أتناول الدواء بلا تذمر، بل كنت أقول «شكرًا لكما يا والديّ العزيزين لمناولتي الدواء الذي سيجعلني معافىً»».

ظن هذا صحيحًا حقًا، وصدقت وندي، التي كانت ترتدي منامتها، هذا أيضًا فقالت لتشجيع مايكل «ذاك الدواء الذي تتناوله أحيانًا مقرف أكثر يا أبي، أليس كذلك؟».

«إنه مقرف أكثر من هذا بكثير»، قال السيد دارلنغ بشجاعة، «وكنت سأشربه الآن قدوة لك يا مايكل لو أنني لم أُضِع الزجاجة».

لم يكن قد أضاع الزجاجة تمامًا، فقد ارتقى أعلى الخزانة وخبأها هناك منتصف الليل. ما لم يعرفه أن الأمينة ليزا وجدتها، ووضعتها على المغسلة.

«أعرف مكانه يا أبتِ»، صاحت وندي التي تسعد بتقديم الخدمات دومًا، «سأحضره». وذهبت قبل أن يستطع إيقافها. ثم هبطت معنوياته على الفور بطريقة غريبة.

قال مرتعشًا: «إنه أكثر الأشياء قرفًا. إنه من ذلك النوع الحلو الدبق المثير للغثيان يا جون».

«سينتهي الأمر سريعًا يا أبت»، قال جون بمرح، ثم دخلت وندي مسرعة حاملة الدواء في كأس.

قالت لاهثة: «لقد أتيت بأسرع ما أمكنني».

«لقد كنت سريعة جدًا»، أجابها أبوها سريعًا، بتهذيب حاقد صب عليها تمامًا، «أعطي مايكل أولًا»، قال بعناد.

«أبي أولًا»، قال مايكل الذي كان ذا طبع شكاك.

قال السيد دارلنغ متوعدًا: «سأشعر بالغثيان كما تعرفون».

«هيا يا أبتِ»، قال جون.

«احفظ لسانك يا جون»، قال أبوه غاضبًا.

كانت وندي في حيرة من أمرها، «ظننتك تتناوله بسهولة يا أبي».

فأجاب: «ليس هذا هو محل الاعتراض، بل أن في كأسي أكثر مما في ملعقة مايكل»، كان قلبه المكابر يخفق بقوة، «وهذا ليس عدلًا؛ وسأقول هذا وإن كان آخر يوم في حياتي، هذا ليس عدلًا».

قال مايكل ببرود: «أنا أنتظرك يا أبي».

«من السهل جدًا أن تقول إنك تنتظر، وأنا أيضًا أنتظر».

«إن أبي جبان رخو».

«أنا لست خائفًا».

«حسن إذًا، تناوله».

«حسن إذًا، تناوله أنت».

خطرت لوندي فكرة مدهشة «لم لا تشربانه في الوقت نفسه؟».

«طبعًا»، قال السيد دارلنغ، «هل أنت مستعد يا مايكل؟».

بدأت وندي العدّ واحد اثنان ثلاثة، فشرب مايكل دواءه، لكن السيد دارلنغ ألقى بدوائه خلف ظهره.

صرخ مايكل غاضبًا، وتعجبت وندي قائلة «أوه يا أبي!».

«ماذا تعنين بقولك أوه يا أبي؟»، اعترض السيد دارلنغ، «كف عن هذا الصراخ يا مايكل، لقد حاولت شرب دوائي، لكنني سكبته».

كانت الطريقة التي نظر بها الثلاثة إليه رهيبة، كأنه لا يعجبهم. «انظروا إليّ جميعًا»، قال باستعطاف، حين ذهبت نانا إلى الحمام. «لقد فكرت بمزحة رائعة. سأسكب دوائي في وعاء نانا، وستشربه ظانة أنه حليب!».

كان له لون الحليب، غير أن الأطفال لم يتمتعوا بحس فكاهة أبيهم، ونظروا إليه موبخين وهو يصب الدواء في وعاء نانا.

«يا له من أمر ممتع»، قال بشك، ولم يجرؤوا على فضح سره حين عادت السيدة دارلنغ ونانا.

«نانا أيتها الكلبة الطيبة»، قال مربتًا عليها، «لقد وضعت لك قليلًا من الحليب في وعائك يا نانا».

هزت نانا ذيلها، وجرت إلى الدواء وبدأت تلعقه. ثم نظرت إلى السيد دارلنغ نظرة، لم تكن نظرة غضب، فقد أظهرت له الدمعة الحمراء الكبيرة التي تجعلنا نأسف لحال الكلاب الطيبة، وزحفت إلى وجارها.

خجل السيد دارلنغ من نفسه للغاية، إلا أنه لم يظهر ذلك. شمت السيدة دارلنغ وعاء نانا بصمت مروّع، ثم قالت: «أوه يا جورج، هذا دواؤك».

«إنها ليست سوى مزحة»، صاح مزمجرًا، بينما هدّأت هي الولدين، وعانقت وندي نانا. فقال بمرارة: «حسن جدًا، انا أرهق نفسي حتى النخاع محاولًا أن أكون مسليًا في هذا البيت».

وظلت وندي معانقة نانا. «هذا جيد»، صاح، «دللوها! لا أحد يدللني، كلا لا أحد يفعل. أنا لست إلا المعيل، فلم أستحق الدلال؟ عجبًا عجبًا!».

توسلت إليه السيدة دارلنغ: «جورج، لا تتحدث بصوت عالٍ فيسمعك الخدم»، لقد اعتادوا على نحو ما تسمية ليزا بالخدم.

فأجابها بلا اكتراث: «دعيهم يسمعوا، نادي العالم كله، لكنني أرفض أن أسمح لتلك الكلبة أن تطغى في غرفة أطفالي لساعة أخرى».

بكى الأطفال، وجرت نانا إليه متضرعة، لكنه لوّح لها أن تعود أدراجها. لقد استعاد شعوره بالقوة ثانية، وصاح «عبثًا عبثًا، إن المكان الملائم لك هو الفناء، وستربطين هناك منذ هذه اللحظة».

«جورج، جورج»، همست السيدة دارلنغ، «ألا تذكر ما قلته لك عن أمر الصبي؟».

عبثًا، لم يكن ليصغي. كان عازمًا على أن يريهم من هو الآمر في ذلك البيت، وحيث أن أوامره لم تكن لتسحب نانا من وجارها، أغراها لتخرج منه بكلمات معسولة، وقبض عليها بقوة وسحبها من غرفة الأطفال. كان ذلك كله بسبب طبعه العاطفي، الذي كان يتوق للإعجاب. حين ربطها في الفناء، ذهب الأب المرهق وجلس في الممر واضعًا يديه على عينيه.

وضعت السيدة دارلنغ أثناء ذلك الأطفال في فراشهم في صمت غير عادي وأشعلت مصابيحهم الليلية. كانوا يسمعون نباح نانا، ونشج جون «هذا لأنه يربطها بالسلاسل في الفناء»، لكن وندي كانت أذكى.

«هذا ليس نباح نانا الحزين»، قالت وهي تخمن قليلًا ما يوشك أن يحدث، «هذا نباحها حين تشم رائحة الخطر».

خطر!

«هل أنت واثقة يا وندي؟».

«أجل».

ارتعدت السيدة دارلنغ وذهبت نحو النافذة. كانت مغلقة بإحكام. ونظرت إلى الخارج ورأت سماء الليل مزينة بالنجوم، التي كانت تحتشد حول البيت، كأنها تشعر بالفضول لرؤية ما يحدث فيه. إلا أنها لم تلحظ هذا، ولم تر أن واحدة أو اثنتين من النجوم الصغيرة قد غمزت لها. غير أن خوفًا غامضًا استولى على قلبها وجعلها تصرخ، «أوه كم أتمنى لو أنني لست ذاهبة للحفلة الليلة!».

حتى مايكل، الذي كان نصف نائم، عرف أنها كانت قلقة، وسأل «هل يمكن لأي شيء أن يؤذينا يا أمي بعد إشعال المصابيح الليلية؟».

قالت: «لا شيء يا حبيبي، إنها عيون الأم تتركها خلفها لتحمي صغارها».

ومضت من فراش لآخر تغني لهم تهويدات، وألقى مايكل الصغير بذراعيه حولها وصاح «أنا مسرور لوجودك يا أمي». كانت تلك آخر الكلمات التي ستسمعها منه لوقت طويل قادم.

كان المنزل ٢٧ على بعد بضع ياردات، غير أن الثلج تساقط خفيفًا، وشق الأم والأب دارلنغ طريقهما فيه بهدوء لئلا يفسدا أحذيتهما. كانا الشخصين الوحيدين في الشارع، وكل النجوم تراقبهما. النجوم جميلة، لكن لا يتعين عليها فعل شيء، بل عليها النظر إلى الأبد. لقد كان عقابًا أنزل بها لأمر فعلته قبل زمن طويل ولا تعرف أي نجمة اليوم ما هو. غدت عيون النجوم الأكبر براقة ونادرًا ما تحدثت (تغمز بلغة النجوم)، لكن الصغيرة منها لم تزل

تتجول. لم تكن ودودة فعلًا مع بيتر، الذي كان له أسلوب خادع في التسلل خلفها محاولًا إخماد نورها، غير أنها كانت مولعة بالمرح كثيرًا فكانت في صفه هذه الليلة، ومتحمسة لإبعاد الكبار عن الطريق. لذا ما إن أغلق باب البيت ٢٧ خلف السيد والسيدة دارلنغ حتى حدث اضطراب في القبة الزرقاء، وصاحت أصغر نجوم مجرة درب التبانة:

«الآن يا بيتر!».

الفصل الثالث

طر بعيدًا!

ظلت المصابيح الليلية قرب فرش الصغار الثلاثة مضاءة لوهلة بعد مغادرة السيد والسيدة دارلنغ. كانت مصابيح ليلية صغيرة جميلة للغاية، ولا يمكن للمرء إلا أن يتمنى لو أنها ظلت مستيقظة لترى بيتر، غير أن مصباح وندي قد أغمض وتثاءب تثاؤبًا جعل الآخرين يتثاءبان أيضًا، وقبل أن يتمكنوا من إغلاق أفواههم انطفأ الثلاثة.

كان في الغرفة مصباح آخر، أشد نورًا من المصابيح الليلية بآلاف المرات، وفي الوقت الذي نحكي فيه هذا، كان المصباح قد دخل كل أدراج غرفة الأطفال بحثًا عن ظل بيتر، ففتش الخزانة وقلّب كل جيب فيها. لم يكن ذلك مصباحًا حقًا، بل كان يصدر هذا النور بالاندفاع بسرعة شديدة، ولكن إن جلس ليرتاح للحظة سيتسنى لك أن ترى أنها جنية، لا تزيد حجمًا عن حجم يدك لكنها تظل تكبر. كانت فتاة تدعى تنكر بِل[1] ترتدي ورقة جافة أنيقة،

---

(١) معنى اسمها الصفّاحة أو السمكرية بل، ومنحت هذا الاسم لأنها تصلح القدور كما سيشرح بيتر لاحقًا.

بتقويرة رقبة كبيرة مربعة، يمكن بها رؤية قوامها بأفضل ما يمكن، ويمكننا القول إنها ممتلئة بعض الشيء.

انفتحت النوافذ من نفَس النجوم الصغيرة بعد دخول الجنية، وقفز بيتر إلى الداخل. لقد حمل تنكر بِل لجزء من الطريق، ولم تزل يداه ملطختين بغبار الجنيات.

«تنكر بِل»، نادى بهدوء بعد أن تأكد من نوم الأطفال، «أين أنت يا تنكر؟» كانت في إبريق للحظة، وقد أحبت ذلك كثيرًا إذ لم يسبق لها أن دخلت إبريقًا.

«أوه، اخرجي من الإبريق الآن وأخبريني، هل تعرفين أين وضعوا ظلي؟».

فأجابه أجمل رنين أجراس، هذه هي لغة الجنيات. لا يمكنكم أيها الأطفال العاديون سماعها، ولكن إن سنحت لكم فرصة لسماعها فستعرفون أنكم سمعتموها ذات مرة.

قالت تنك إن الظل في الصندوق الكبير، وكانت تعني خزانة الأدراج. فقفز بيتر إلى الأدراج، مبعثرًا محتواها على الأرض بكلتا يديه، كما ينثر الملوك المال على الحشود. كان قد استعاد ظله في لحظة، ونسي في غمرة سعادته أنه حبس تنكر بل في الدرج.

لو كان يتذكر، لكني لا أظنه يتذكر أبدًا، فهو وظله يلتحمان مثل قطرات الماء حين يقتربان من بعضهما بعضًا، لكن ذلك لم يحدث، فأصابه الذعر. وحاول أن يلصقه به مستخدمًا الصابون من الحمام، لكن هذا لم ينجح أيضًا. فارتعش بيتر وجلس على الأرض وبكى.

أيقظ نشيجه وندي، فاعتدلت في فراشها. لم تخف من رؤية غريب يبكي في غرفة الأطفال، بل كانت مهتمة للغاية.

فقالت بأدب: «ما يبكيك يا فتى؟».

كان بيتر شديد التهذيب أيضًا، فقد تعلم الأخلاق الرفيعة في احتفالات الجنيات، فنهض وانحنى لها محييًا بأناقة. وسرت كثيرًا وانحنت له محيية بأناقة من فراشها.

سألها «ما اسمك؟».

فأجابت بشيء من الرضا «وندي مويرا أنجلا دارلنغ. ما اسمك أنت؟».

«بيتر پان».

كانت تعرف مسبقًا أنه لا بد أن يكون بيتر، لكنه بدا اسمًا قصيرًا مقارنة باسمها.

«هل هذا اسمك كاملًا؟».

«أجل»، قال بشيء من الحدة، فقد شعر للمرة الأولى أنه اسم قصير.

«أنا آسفة جدًا»، قالت وندي مويرا أنجلا.

فقال بيتر بغصة «هذا لا يهم».

سألته أين يسكن.

«في المنعطف الثاني نحو اليمين، ثم للأمام حتى الصباح».

«يا له من عنوان غريب!».

شعر پيتر بالحزن، إذ رأى للمرة الأولى أنه لربما كان عنوانًا غريبًا.

قال «كلا، إنه ليس كذلك».

قالت وندي بهدوء متذكرة أنها المضيفة «أعني، هل هذا ما تكتبه على الرسائل؟».

تمنى لو أنها لم تذكر الرسائل.

«لا أتلقى أي رسائل»، قال بازدراء.

«لكن ألا تتلقى أمك الرسائل؟».

«ليس لي أم»، قال. لم يكن بلا أم فحسب، بل لم تكن لديه أي رغبة في أن تكون له أم. فقد ظن الأمهات دائمًا مبالغ في تقديرهن. غير أن وندي شعرت على الفور أنها أمام مأساة.

«أوه يا پيتر، لا عجب أنك كنت تبكي»، قالت ونهضت من سريرها وجرت إليه.

«لم أكن أبكي بشأن الأمهات»، قال بشيء من الاستياء، «كنت أبكي لأنني لا أستطيع إلصاق ظلي بي، ثم إنني لم أكن أبكي».

«هل انفصل عنك؟».

«أجل».

ثم رأت وندي الظل على الأرض، يبدو قذرًا جدًا، فشعرت بعميق الأسف من أجل پيتر. «هذا فظيع!» قالت، غير أنها لم تستطع

منع نفسها من الابتسام حين رأت أنه يحاول إلصاقه بالصابون. يا له من تصرف أولاد!

عرفت على الفور لحسن الحظ ما تفعله، «لا بد من خياطته»، قالت بشيء من التفضّل.

«ماذا تعنين بالخياطة؟»، سألها.

«إنك شديد الجهل».

«كلا، لست كذلك».

لكنها كانت جذلة بجهله، «سأخيطه لك، أيها الرجل الصغير»، قالت رغم أنه كان بطولها، فأظهرت مهارة ربة البيت وخاطت الظل على قدم بيتر.

«أخشى أنه سيؤلمك قليلًا»، قالت محذرة.

«أوه، لن أبكي»، قال بيتر الذي اعترف قبلًا أنه لم يبك مرة في حياته، وسرعان ما أخذ ظله يتصرف على نحو لائق، رغم أنه لم يزل مجعدًا قليلًا.

قالت وندي جادة «ربما من الأفضل كيّه»، لكن بيتر، مثل كل الأولاد، يكره المظاهر، وكان يقفز الآن بجذل كبير. وا أسفاه، كان قد نسي على الفور أنه يدين بهذه النعمة لوندي، فقد ظن أنه وصل الظل بنفسه، «يا لي من ذكي»، صاح منتشيًا، «أوه يا لذكائي!».

إنه لأمر مهين الاعتراف بأن غرور بيتر هذا كان إحدى صفاته الساحرة، ولنقلها بصراحة قاسية، ما من صبي يفوقه غرورًا.

لكن وندي دهشت للحظة «يا لغرورك، لم أفعل أنا شيئًا بطبيعة الحال!».

«فعلت القليل»، قال بيتر بلامبالاة وواصل رقصه.

فردت بغطرسة «القليل! ما دمت لست بذات فائدة فيمكنني الانسحاب على الأقل»، وقفزت برزانة شديدة إلى فراشها وغطت وجهها بالبطانيات.

فتظاهر بالرحيل لتحريضها على النظر إليه، وحين فشل في هذا جلس على طرف الفراش وربّت عليها بقدمه بلطف، وقال «لا تنسحبي يا وندي. لا يمكنني ألا أتبجح يا وندي إن كنت مسرورًا بنفسي»، غير أنها لم تنظر إليه رغم إصغائها إليه متلهفة. فتابع حديثه بصوت لا يمكن لأي امرأة أن تقاومه «إن فتاة واحدة لها فائدة تفوق عشرين صبيًا يا وندي».

الآن غدت وندي امرأة في كل إنش منها، رغم أنه ما من إنشات كثيرة، ثم اختلست النظر من أغطية الفراش.

«هل تظن ذلك حقًا يا بيتر؟».

«أجل، أظن ذلك».

فقالت «هذا لطف منك، وسأنهض ثانية»، وجلست معه على طرف الفراش. قالت إنها ستمنحه قبلة أيضًا إن أراد ذلك، لكن بيتر لم يعرف ماذا تعني، ومد يده مترقبًا.

«أنت تعرف ما هي القبلة طبعًا؟»، سألته مذعورة.

«سأعرفها حين تعطينها لي»، رد بجفاء، وأعطته كشتبانًا كيلا تؤذي مشاعره.

قال «والآن هل علي أن أقدم لك قبلة؟» فردت هي بقليل من الاحتشام «إن شئت». وبدت قليلة التهذيب بعض الشيء، حين قدمت وجهها نحوه، لكنه وضع في يدها جوزة بلوط. فأرجعت رأسها بهدوء إلى مكانه قبلًا، وقالت إنها ستضع قبلته في السلسلة حول عنقها. وكانت محظوظة أن وضعتها في تلك السلسلة لأنها أنقذت حياتها فيما بعد.

حين يتعارف أشخاص في محيطنا، فمن المعتاد أن يسألوا بعضهم بعضًا عن العمر، فسألت وندي، التي تحب دومًا فعل الأمور الصائبة، بيتر عن عمره. لم يكن سؤالًا جيدًا تطرحه عليه، فقد كان مثل ورقة اختبار تختبرك في النحو في حين أنك تود أن تُسأل عن ملوك إنجلترا.

أجاب باستياء «لست أدري، لكنني صغير». لم يكن يعرف حقًا عمره، بل كان لديه بعض الظنون فحسب، لكنه قال مجازفًا: «لقد هربت في اليوم الذي ولدت فيه يا وندي».

كانت وندي مندهشة جدًا، لكنها متحمسة وأشارت بأكثر أساليب قاعات الاستقبال سحرًا، بلمسة على منامتها، أن باستطاعته الجلوس أقرب.

ثم وضح بصوت خفيض «حدث ذلك لأني سمعت أمي وأبي يتحدثان عما سأكونه حين أصبح رجلًا»، كان غاضبًا للغاية وتابع، «لم أرغب أبدًا أن أصبح رجلًا»، قال بحب، «أردت أن أظل دومًا

صبيًا صغيرًا وأن أمرح، لذا هربت إلى كنغزتن غاردنز وعشت لوقت طويل جدًا بين الجنيات».

نظرت إليه نظرة إعجاب شديد، وظن أن ذلك لأنه هرب، غير أن إعجابها كان لمعرفته بالجنيات. فقد عاشت وندي حياة عائلية وأدهشتها معرفة الجنيات وأسعدتها كثيرًا. فانهالت عليه بالأسئلة، لدهشته، لأنهن كن في نظره سخيفات يعترضن طريقه، وكان يختبئ منهن أحيانًا. إلا أنه أحبهن عمومًا، وقد أخبرها عن بداية الجنيات.

«تعرفين يا وندي، حين يضحك الطفل الأول لأول مرة، تتكسر ضحكته إلى آلاف القطع، وتثب كلها مرحًا، تلك بداية الجنيات».

كان كلامًا مملًا، لكنها أحبته لكونها بيتوتية.

وواصل بمزاج طيب، «ولذا من المفترض وجود جنية واحدة لكل فتاة وفتى».

«من المفترض؟ أليست موجودة؟».

«كلا. فالأطفال يعرفون الكثير اليوم كما ترين، وسرعان ما يفقدون إيمانهم بوجود الجنيات، وكلما قال طفل أنا لا أصدق وجود الجنيات، تموت جنية في مكان ما».

ظن الآن حقًا أنهما تحدثا طويلًا عن الجنيات، وأدهشه أن تظل تنكر بل هادئة، فقال ناهضًا «لست أدري أين ذهبت»، ونادى تنكر بل باسمها وخفق قلب وندي بإثارة مفاجئة.

فصاحت وهي تمسك به «أنت لا تعني أن تخبرني أن في هذه

الغرفة جنية يا بيتر!» فقال بشيء من نفاد الصبر «لقد كانت هنا قبل قليل، أنت لا تسمعينها، أليس كذلك؟» ثم أصاخا السمع.

قالت وندي «الصوت الوحيد الذي أسمعه صوت يشبه صليل الأجراس».

«حسن، هذه تنك، وهذه لغة الجنيات. أظنني أسمعها أيضًا».

انبعث الصوت من خزانة الأدراج، وصار على وجه بيتر تعبير مرح. لم يكن لأحد أن يبدو مرحًا جدًا بقدر بيتر، وكانت ضحكته أجمل الغرغرات، إذ ما زال يحتفظ بضحكته الأولى.

فهمس بجذل، «أظنني أغلقت عليها الدرج يا وندي!».

ثم أخرج تنك المسكينة من الدرج، وطارت في أرجاء غرفة الأطفال تصرخ من الغضب. فرد عليها بيتر سريعًا «لا يجدر بك قول أشياء كهذه. طبعًا، أنا آسف حقًا، ولكن أنى لي أن أعرف أنك في الدرج؟».

كانت وندي تصغي له ثم صاحت، «أوه يا بيتر، لو أنها تقف في مكانها للحظة وتجعلني أراها!».

فقال: «نادرًا ما تثبت الجنيات في مكانهن»، لكن وندي رأت للحظة قوامًا متقدًا ذهب للجلوس على ساعة الجدار. فصاحت «أوه يا لجمالها!» رغم أن وجه تنك أفسده الانفعال.

قال بيتر بدماثة «تنك، تقول هذه السيدة إنها تتمنى لو كنت جنيتها».

فأجابت تنكر بل بعجرفة.

«ماذا قالت يا بيتر؟».

كان عليه أن يترجم «إنها ليست شديدة التهذيب فهي تقول إنك فتاة كبيرة قبيحة، وإنها جنيتي أنا».

فحاول أن يجادل تنك «تعلمين أن ليس بوسعك أن تكوني جنيتي يا تنك، لأنني رجل مهذب وأنت سيدة».

فردت تنك على قوله بهذه الكلمات «أيها الأحمق السخيف»، واختفت في الحمام. فشرح بيتر معتذرًا «إنها جنية سوقية، تدعى تنكر بل لأنها تصلح القدور والأباريق».

كانا هذه المرة يجلسان معًا على الكرسي ذي الذراعين، وأمطرته وندي بمزيد من الأسئلة.

«إن كنت لا تسكن في كنعزتن غاردنز في الوقت الراهن...».

«ما زلت أحيانًا».

«لكن أين تقيم معظم الوقت حاليًا؟».

«مع الصبية التائهين».

«ومن يكونون؟».

«إنهم الأولاد الذين يسقطون من عرباتهم حين كانت المربية تنظر إلى الجانب الآخر. إن لم يطالب بهم أحد في غضون سبعة أيام، يرسلون بعيدًا إلى نفرلاند لدفع النفقات، وأنا القائد».

«لا بد أن الأمر ممتع!».

قال بيتر الماكر «أجل، لكننا نشعر بالوحدة قليلًا، فليس لدينا رفقة أنثوية كما ترين».

«ما من فتاة بين أولئك؟».

«أوه، إن الفتيات شديدات الذكاء كما تعرفين، فلا يسقطن من عرباتهن».

أسعد قوله هذا وندي كثيرًا فقالت «أظنها طريقة جميلة تلك التي تتحدث بها عن الفتيات، فهذا جون لا يفعل شيئًا سوى إغاظتنا».

فنهض بيتر، ردًا على ذلك، وأخرج جون من فراشه وغطائه وكل شيء بركلة واحدة. بدا هذا لوندي كثيرًا في اللقاء الأول، وأخبرته بروح عالية أنها لم تكن قائدة في بيتها. وواصل جون على أية حال نومه بهدوء شديد على الأرض حتى أنها سمحت له بذلك فقالت بلين «أعلم أنك قصدت أن تكون لطيفًا، لذا يمكنك منحي قبلة».

نسيت للحظة جهله بالقبل، فقال بشيء من المرارة «عرفت أنك سترغبين باستعادتها»، وعرض أن يعيد لها الكشتبان.

فقالت وندي بلطف «أوه يا عزيزي، لا أقصد القبلة بل الكشتبان».

«وما ذاك؟».

«إنه مثل هذا»، وقبلته.

فقال بيتر بصوت خفيض «ظريف! والآن دوري لأعطيك الكشتبان».

«إن أردت ذلك»، قالت وندي وقد أبقت رأسها مستقيمًا هذه المرة.

قبلها بيتر، ثم زعقت بعد ذلك فورًا. «ما الأمر يا وندي؟».

«كأن أحدهم يشد شعري».

«لا بد أنها تنك. لم أعرف أبدًا أنها مشاكسة إلى هذا الحد».

وقد كانت تنكر فعلًا تتحرك سريعًا ثانية، مستخدمة لغة مهينة.

«تقول إنها ستفعل ذلك بك يا وندي في كل مرة أعطيك فيها كشتبانًا».

«لكن لماذا؟».

«لماذا يا تنك؟».

فأجابت تنك ثانية «أيها الأحمق السخيف». لم يستطع بيتر أن يعرف السبب حقًا، غير أن وندي فهمت وشعرت بقليل من الخيبة حين اعترف أنه لا يأتي إلى نافذة غرفة الأطفال لرؤيتها، بل للاستماع إلى الحكايات.

«أنا لا أعرف أي حكاية كما ترين، ولا أحد من الصبية التائهين يعرف أي حكاية».

قالت وندي «ذلك مريع حقًا».

سألها بيتر «هل تعلمين لماذا تبني طيور السنونو أعشاشها على طُنَف المنازل؟ كي تستمع للحكايات. أوه يا وندي، كانت أمك تحكي لك قصة جميلة».

«أي قصة كانت؟».

«عن الأمير الذي لم يجد السيدة التي ارتدت الحذاء الزجاجي».

فقالت وندي متحمسة «تلك حكاية سندريلا يا بيتر، وقد وجدها وعاشا في سعادة دائمة».

سر بيتر كثيرًا حتى أنه نهض من الأرض، حيث كانا يجلسان، وجرى نحو النافذة. «إلى أين أنت ذاهب؟» صاحت مرتابة.

«لأخبر الصبية الآخرين».

توسلت إليه «لا تذهب يا بيتر، فأنا أعرف الكثير من القصص».

كانت هذه كلماتها بالضبط، لذا لا يمكن إنكار أنها أغرته أولًا.

عاد، والنهم يملأ عينيه، وكان لا بد أن يفزعها ذلك، لكنه لم يفعل.

«أوه، يا لكثرة الحكايات التي يمكنني سردها للصبية!»، صاحت، ثم أمسكها بيتر وأخذ يشدها نحو النافذة.

«دعني!» قالت آمرة إياه.

«تعالي معي يا وندي، واحكي للصبية الآخرين».

كانت مسرورة جدًا حين طلب منها، لكنها قالت «يا إلهي، لا

أستطيع. فكر بأمي! ثم إنني لا أستطيع الطيران».

«سأعلمك».

«كم هو رائع أن أطير».

«سأعلمك كيف تقفزين على ظهر الريح، ثم سننطلق بعيدًا».

«أووه!»، قالت جذلة.

«وندي وندي، بدلًا من أن تغطي في النوم في فراشك التافه يمكنك الطيران معي قائلة أمورًا مضحكة للنجوم».

«أوه!».

«ثم سترين حوريات البحر يا وندي».

«حوريات البحر! ألهن ذيول؟».

«ذيول طويلة».

صاحت وندي «كم أود رؤية حورية بحر».

ثم غدا ماكرًا للغاية فقال «كم سنحترمك جميعًا يا وندي».

كانت تتلوى في قلق. كانت تحاول التشبث بأرض غرفة الأطفال.

لكنه لم يشفق عليها.

فقال ذلك المخادع «بوسعك أن تغطينا ليلًا».

«أووه!».

«لم يسبق لأحد منا أن غطي ليلًا».

«أوه!»، ومدت ذراعيها نحوه.

«وبوسعك أن ترتقي ثيابنا، وتصنعي لنا جيوبًا، ليس لأحد منا جيب».

وأنى لها أن تقاوم؟ فصاحت «إن ذلك فاتن حقًا! هل لك أن تعلم الطيران لجون ومايكل أيضًا؟».

«إن أردت ذلك»، قال بلامبالاة، فجرت نحو جون ومايكل وهزتهما قائلة «استيقظا، لقد جاء پيتر پان وسيعلمنا كيف نطير».

فرك جون عينيه «إذًا سأنهض»، قال وقد كان على الأرض من قبل، «مرحى، أنا مستيقظ!».

استيقظ مايكل هو الآخر، ويبدو حادًا مثل سكين ذات ست أنصال ومنشار، غير أن پيتر لزم الصمت فجأة. فقد ارتسم على وجوههم مكر شديد كالذي يرتسم على وجوه أطفال يسمعون أصواتًا من عالم الكبار. كان كل شيء ساكنًا مثل الملح، ثم غدا كل شيء على ما يرام، كلا، انتظروا! لم يكن كل شيء على ما يرام، فقد كانت نانا، التي ظلت تنبح بقلق طوال المساء، قد هدأت الآن، وكان صمتها هو ما سمعوه.

«اطفئوا النور! اختبئوا! أسرعوا!»، صاح جون معطيًا الأوامر للمرة الوحيدة أثناء المغامرة كلها. وهكذا حين دخلت ليزا، حاملة نانا، بدت غرفة الأطفال مثلما تكون دومًا، مظلمة جدًا، ويمكنك أن تقسم أنك سمعت النفَس الملائكي لنزلائها الثلاثة الماكرين وهم نائمون. كانوا يفعلون ذلك ببراعة من خلف ستائر النافذة.

كانت ليزا في مزاج سيء، لأنها كانت تخلط مزيج حلوى عيد الميلاد في المطبخ، فأخذتها شكوك نانا الغريبة من عملها ولم تزل حبة زبيب على خدها. ورأت أن الطريقة المثلى للحصول على شيء من الهدوء أن تأخذ نانا إلى غرفة الأطفال للحظة، لكن تحت رعايتها طبعًا.

«انظري أيتها البهيمة الشكاكة»، قالت دون أن تشعر بالأسف لخجل نانا، «إنهم بأمان تام، أليس كذلك؟ كل واحد من الملائكة الصغار نائم في فراشه، اسمعي صوت أنفاسهم الرقيقة».

عندها تنفس مايكل بصوت عال جدًا، وقد تحمس لنجاحه، حتى يمكن سماعه. عرفت نانا هذا النوع من الأنفاس، وحاولت أن تحرر نفسها من قبضة ليزا.

لكن ليزا حمقاء، فقالت بحزم وهي تحملها خارجًا «لا مزيد من ذلك يا نانا. أحذرك إن نبحت ثانية فسأذهب من فوري إلى السيد والسيدة وأستدعيهما من الحفلة، وعندئذ سيجلدك السيد بقوة».

ربطت الكلبة التعسة ثانية، ولكن هل تظنون أن نانا كفت عن النباح؟ استدعوا السيد والسيدة من الحفل! ويْ، هذا ما كانت تريده. هل تظنون انها اهتمت إن كانت ستجلد ما دام صغارها بأمان؟ عادت ليزا إلى الحلوى للأسف، فشدت نانا السلسلةَ، حين رأت أنها لن تحصل على عون ليزا، حتى كسرتها أخيرًا. واندفعت في اللحظة التالية إلى غرفة الطعام في المنزل ٢٧ ورفعت براثنها إلى

السماء، إذ كانت تلك طريقتها الواضحة في التعبير. عرف السيد والسيدة دارلنغ على الفور أن شيئًا رهيبًا قد حدث في غرفة الأطفال، وركضا نحو الشارع دون أن يودعا مضيفيهما.

لكن كانت قد مرت عشر دقائق منذ أن تنفس الماكرون الثلاثة خلف الستائر، وبوسع بيتر پان أن يفعل الكثير في عشر دقائق.

لنعد الآن إلى غرفة الأطفال.

قال جون خارجًا من مخبئه «كل شيء على ما يرام. قل لي يا بيتر، هل تستطيع الطيران حقًا؟».

وبدلًا من أن يتجشم عناء الرد عليه، طار بيتر في أرجاء الغرفة، مطيحًا برف الموقد في طريقه.

«يا للروعة!» صاح جون ومايكل.

«يا للجمال!» هتفت وندي.

قال بيتر ناسيًا الأدب ثانية «أجل، أنا جميل، أنا جميل!».

بدا الأمر سهلًا للغاية، وجربوه في بادئ الأمر من الارض، ثم من فرشهم، لكنهم كانوا دومًا يهبطون بدلًا من الارتفاع.

سأل جون وهو يفرك ركبتيه «أسألك كيف تفعل ذلك؟»، كان ولدًا عمليًا.

فشرح بيتر «عليك التفكير بأفكار مدهشة، وهي سترفعك في الهواء».

وأراه ثانية.

فقال جون «إنك سريع جدًا في ذلك، ألا يمكنك أن تفعلها ببطء شديد؟».

ففعلها بيتر ببطء وبسرعة، وهتف جون «لقد فهمتها الآن يا وندي!» لكنه عرف سريعًا أنه لم يفعل. لم يستطع أي منهم التحليق ولو لإنش، حتى وإن كان مايكل يعرف كيف يقرأ الكلمات ذات المقطعين، ولا يفرق بيتر بين الحروف الهجائية.

كان بيتر يعبث بهم بلا شك، لأن ليس بمقدور أحد أن يطير دون أن ينفخ عليه غبار الجنيات. كانت إحدى يديه لحسن الحظ، كما ذكرنا آنفًا، ملطخة به فنفخ شيئًا منه على كل واحد بحركة رائعة.

قال «وما عليكم الآن إلا أن تهزوا اكتافكم هكذا، ثم انطلقوا».

كانوا كلهم على فرشهم، وانطلق مايكل الشجاع أولًا. لم يكن ينوي الانطلاق فعلًا غير أنه فعلها، وأخذ يطوف في أنحاء الغرفة على الفور.

صاح وهو ما زال ثابتًا في الهواء: «لقد طرت!».

انطلق جون والتقى بوندي قرب الحمام.

«أوه، رائع!».

«مثير!».

«انظروا إلي!».

«انظروا إلي!».

«انظروا الي!».

لم يكونوا برشاقة پيتر، فلم يستطيعوا الكف عن الركل قليلًا، إلا أن رؤوسهم كانت ترتفع إلى السقف وما من شيء ممتع كهذا. مد پيتر يدًا لوندي أولًا، لكنه اضطر للتراجع. فقد كانت تنك ساخطة جدًا.

طاروا إلى الأعلى والأسفل، واستداروا واستداروا. «كأنها الجنة» كان وصف وندي للأمر.

فهتف جون «لماذا لا نخرج جميعًا؟!».

وكان پيتر طبعًا يحرضهم على هذا.

كان مايكل مستعدًا، إذ أراد معرفة كم سيستغرق به الأمر لقطع مليار ميل، لكن وندي ترددت.

«حوريات البحر!»، قال پيتر ثانية.

«أوه!».

«وقراصنة».

«قراصنة!»، صاح جون وهو يمسك بقبعة يوم الأحد، «لنذهب على الفور».

كانت هذه هي اللحظة التي هرع فيها السيد والسيدة دارلنغ مع نانا خارج المنزل ٢٧. فركضوا إلى وسط الشارع للنظر إلى نافذة

غرفة الأطفال، بلى لم تزل مغلقة، لكن الغرفة كانت متقدة بالضوء، أما المنظر الأكثر قبضًا للقلب فكان رؤيتهم ثلاثة ظلال صغيرة على الستائر في ثياب النوم تدور وتدور، ليس على الأرض بل في الهواء.

ليست ظلالًا ثلاثة، إنها أربعة!

فتحا الباب الخارجي مرتعدين، كان السيد دارلنغ سيصعد الطابق العلوي مسرعًا، لولا أن طلبت منه السيدة دارلنغ أن يمشي بهدوء.

هل سيصلان غرفة الأطفال في الوقت المناسب؟ لو حدث ذلك، فسيكون أمرًا سارًا لهما، وسنتنفس الصعداء، لكن لن تكون لدينا حكاية. من ناحية أخرى، إن لم يصلا في الوقت المناسب، فأعدكم جادًّا أن يمضي كل شيء على ما يرام في النهاية.

كانا سيصلان غرفة الأطفال في الوقت المناسب لو لم تكن النجوم الصغيرة تراقبهما، وقد فتحت النجوم النافذة ثانية، وصاحت أصغر النجوم:

«الحذر يا بيتر!».

عرف بيتر عندئذ أنه ما من لحظة يضيعها، فصاح باستبداد «تعالوا»، وحلق خارجًا على الفور في الليل يتبعه جون ومايكل ووندي.

دخل السيد والسيدة دارلنغ غرفة الأطفال متأخرين كثيرًا، فقد طارت العصافير.

الفصل الرابع
الرحلة

«المنعطف الثاني على اليمين، ثم إلى الأمام حتى الصباح». كان هذا، كما قال بيتر لوندي، هو الطريق إلى نفرلاند، غير أن حتى الطيور التي تحمل الخرائط وتنظر إليها في البقاع العاصفة، لم يكن لها أن تراها بهذه الإرشادات. إن بيتر، كما تعرفون، يقول أي شيء يخطر بباله.

وثق به رفاقه في بادئ الأمر ثقة مطلقة، وكانت فرحة الطيران عظيمة حتى أنهم بددوا الوقت وهم يدورون حول أبراج الكنائس أو غيرها من المباني العالية في الطريق الذي سلب ألبابهم.

تسابق جون ومايكل، وقد حاز مايكل السبق.

لقد تذكروا باستياء أنهم ظنوا أنفسهم قبل وقت قصير أشخاصًا أذكياء لقدرتهم على الطيران في غرفة.

قبل وقت قصير، منذ متى؟ كانوا يطيرون فوق البحر قبل أن تبدأ هذه الفكرة بإزعاج وندي كثيرًا. وظن جون أن هذا هو البحر الثاني الذي يقطعونه وليلتهم الثالثة.

كان الوقت ليلًا أحيانًا، ونهارًا أحيانًا أخرى، وكانوا يشعرون بالبرد الشديد مرارًا وفي أخرى يغمرهم الدفء. هل كانوا يشعرون بالجوع حقًا في بعض الأحايين، أم أنهم كانوا يتظاهرون بذلك نظرًا لأسلوب بيتر الجديد المرح في إطعامهم؟ فقد كان يلاحق الطيور التي تحمل في أفواهها طعامًا يناسب البشر وينتزعه منها، ثم تلاحقه الطيور وتنتزعه ثانية، وكانوا يطاردون بعضهم بعضًا بجذل لأميال، مفترقين في النهاية بعبارات متبادلة للنوايا الطيبة. غير أن وندي لاحظت بشيء من القلق جهل بيتر بكون هذه طريقة غريبة في الحصول على القوت، وأن ثمة طرق أخرى لفعل ذلك.

لم يتظاهروا بالنعاس بلا شك، كانوا نعسين، وكان هذا خطرًا، لأنهم سيسقطون إن ناموا. والبغيض في الأمر أن بيتر وجد هذا مسليًا.

«ها قد سقط ثانية!» كان يهتف مرحًا، حين سقط مايكل فجأة مثل صخرة.

«أنقذه، أنقذه!»، هتفت وندي وهي تنظر مذعورة إلى البحر المخيف في الأسفل. كان بيتر يسبح في الهواء في نهاية الأمر، ويمسك مايكل قبل أن يصل البحر، وكانت طريقته في ذلك جميلة، غير أنه كان دومًا ينتظر اللحظة الأخيرة، ويخامرك شعور أن ذكاءه هو ما أثار حماسه لا إنقاذ حياة إنسان. كما أنه كان مولعًا بالتنوع، والرياضة التي تستحوذ على اهتمامه في لحظة تكف عن إثارته فجأة، ولذا فإنه من المحتمل أن يتركك إن سقطت في المرة التالية.

كان بوسعه النوم في الهواء دون أن يقع، بأن يستلقي على ظهره ويطفو فحسب، غير أن هذا بسبب، في جزء منه على الأقل، خفته الشديدة، حتى إنه يمضي أسرع لو وقفت خلفه ونفخت عليه.

«عليك أن تكون أكثر تهذيبًا معه»، همست وندي لجون حين كانوا يلعبون «اتباع القائد».

فقال جون «فأخبريه إذًا أن يكف عن التبجح».

في هذه اللعبة، كان بيتر يطير قريبًا من الماء ويلمس ذيل القرش في عبوره، كما تمرر إصبعك في الشارع على قضبان الحديد. لم يكن بمقدورهم تقليده في هذا بكثير من النجاح، فلربما كان في ذلك إذًا شيئًا من التبجح وبخاصة أنه ظل ينظر للخلف ليرى كم ذيلًا فوتوه.

شددت وندي على أخويها «عليكما أن تكونا لطيفين معه، فماذا سنفعل إن تركنا؟».

قال مايكل «يمكننا العودة».

«وكيف سنعثر على طريق العودة دونه؟».

«حسن، يمكننا المضي للأمام إذًا»، قال جون.

«وهذا هو الأمر المزعج يا جون، سيتعين علينا المضي للأمام، لأننا لا نعرف كيف نتوقف».

كان هذا صحيحًا، لأن بيتر نسي أن يريهم كيف يتوقفون.

فقال جون إن كل ما عليهم فعله هو مواصلة التقدم إلى الأمام

لو ازدادت الأمور سوءًا، لأن الأرض كانت مدورة، وهذا يعني أنهم سيعودون إلى نافذتهم بمرور الوقت.

«ومن سيحصل لنا على الطعام يا جون؟».

«لقد انتزعت لقمة من فم النسر ببراعة شديدة يا وندي».

فذكّرته وندي «بعد عشرين محاولة. وحتى لو صرنا ماهرين في الحصول على الطعام، ألا تريان كيف نصطدم بالغيوم والأشياء لولا وجوده وعونه؟».

وكانوا يصطدمون باستمرار بالفعل. بوسعهم الطيران جيدًا، مع أنهم ما زالوا يركلون كثيرًا. وإن رأوا غيمة أمامهم اصطدموا بها قطعًا مهما جهدوا لتجنبها. لو كانت نانا معهم للفت ضمادة حول جبين مايكل.

لم يكن بيتر معهم في هذه اللحظة، وانتابهم شعور بالوحدة قليلًا وهم وحدهم بالأعلى. كان بوسعه التقدم أسرع منهم، حتى إنه يختفي عن الأنظار أحيانًا، ليقوم بمغامرة لا يكون لهم فيها نصيب. ثم يهبط ضاحكًا على شيء مضحك للغاية كان يقوله لنجمة، لكنه نسي ما هو، أو قد يصعد وحراشف أذيال الحوريات ما زالت ملتصقة به، ورغم ذلك لم يكن باستطاعته أن يحكي ما حدث فعلًا. وكان ذلك مزعجًا جدًا للصغار الذين لم يروا حورية بحر من قبل.

«وإن كان ينساها بهذه السرعة»، جادلت وندي، «فكيف لنا أن نتوقع أنه سيظل يتذكرنا؟».

لم يكن يتذكّرهم حقًا حين يعود، لا يتذكرهم جيدًا على الأقل. كانت وندي واثقة من ذلك، فقد رأت الامتنان في عينيه حين كان على وشك أن يتجاوزهم نهارًا ويتقدم، إذ كان عليها في تلك المرة أن تخبره باسمها.

قالت غاضبة «أنا وندي».

فشعر بالأسف الشديد، وهمس «أقول لك يا وندي، إن رأيتني نسيتك فذكريني دومًا بقولك أنا وندي، وسأتذكر حينئذ».

لم يكن هذا مرضيًا طبعًا. على أية حال، علمهم، كي يصلح الأمور، كيف يستلقون باستواء على الريح القوية التي تهب في طريقهم، وكان هذا تغييرًا ممتعًا حتى إنهم جربوها عددًا من المرات وأدركوا أن بوسعهم النوم بأمان هكذا. كان بوسعهم أن يناموا وقتًا أطول حقًا، غير أن پيتر سئم من النوم سريعًا، وهتف بصوت القائد «سننزل هنا». فاقتربوا من نفرلاند، بقليل من المشاجرات وكثير من المرح، لأنهم وصلوا إليها بعد كثير من الأقمار، وعلاوة على ذلك كانوا يمضون للأمام طوال الوقت، وربما لم يكن ذلك بفضل قيادة پيتر أو تنك بقدر ما كان بفضل ظهور الجزيرة أمام أعينهم. إذ يمكن لأي امرئ، بهذه الطريقة وحدها، أن يرى تلك الشطآن السحرية.

قال پيتر بهدوء «ها هي».

«أين، أين؟».

«حيث تشير كل الأسهم».

كان مليون سهم ذهبي يشير للصغار إلى الجزيرة، وكلها قد سددتها صديقتهم الشمس التي أرادتهم أن يتأكدوا من طريقهم قبل أن تغادرهم لحلول الليل.

وقفت وندي وجون ومايكل في الهواء متلهفين ليلقوا النظرة الأولى على الجزيرة، ومن الغريب أنهم رأوها جميعًا على الفور، وكانوا يلوحون لها حتى استحوذ عليهم الخوف، إذ لم تكن تشبه شيئًا حلموا برؤيته طويلًا ورأوه أخيرًا، لكن مثل صديق أليف كانوا يعودون إليه في الإجازات.

«فيها بحيرة يا جون».

«انظري إلى السلاحف تدفن بيضها في الرمال يا وندي».

«أرى طائرك النحام يا جون وله ساق مكسورة».

«انظر يا مايكل، هذا كهفك».

«ما الذي في الأجمة يا جون؟».

«إنها ذئبة مع جرائها. أظن أن هذا جروك الصغير يا وندي».

«ذلك قاربي يا جون وجوانبه مهشمة».

«كلا، ليس هو، عجبًا لقد حرقنا قاربك».

«إنه هو بلا شك، أرى الدخان ينبعث من مخيم الهنود الحمر يا جون».

«أين؟ أرني، وسأخبرك من دوران الدخان إن كانوا في حرب».

«انظر هناك، خلف نهر الأسرار».

«إني أراه، إنهم في حرب حتمًا».

شعر بيتر بالضيق قليلًا منهم لمعرفتهم هذا كله، ولكن إن أراد أن يتغلب عليهم فقد كان نصره في يده، ألم أخبركم آنفًا أن الخوف قد استحوذ عليهم؟

لقد انتابهم الخوف حين اختفت الأسهم، تاركًا الجزيرة تغرق في العتمة.

تبدو نفرلاند دومًا في الأيام الخوالي في المنزل معتمة قليلًا ومخيفة في وقت النوم، ثم تظهر رقع غامضة عليها وتتمدد، وتتحرك ظلال سوداء عليها، ويغدو زئير الحيوانات المفترسة مختلفًا جدًا، وعلاوة على ذلك تفقد يقينك بالفوز. لقد كنت سعيدًا لإشعال المصابيح الليلية، ووددت حتى أن تقول لك نانا إن هذا ليس سوى رف الموقد، وإن نفرلاند ليست إلا بدعًا من الخيال.

كانت نفرلاند بدعًا من الخيال في تلك الأيام حقًا، لكنها حقيقية الآن، وما من مصابيح ليلية، وهي تزداد عتمة كل لحظة، ثم أين نانا؟

كانوا يطيرون متفرقين، لكنهم تجمعوا قرب بيتر. كان قد تخلى عن أسلوبه اللامبالي، وأخذت عيناه تلمعان، وكانوا يشعرون بشيء من الوخز كلما لمسوا جسده. لقد كانوا الآن على الجزيرة المخيفة، يطيرون بانخفاض حتى إن بعض الأشجار تصفع وجوههم أحيانًا. ما من شيء مرعب مرئيًا في الهواء، ومع ذلك صار تقدمهم بطيئًا

ومجهدًا، كأنهم يشقون طريقهم عبر قوى عدائية. كانوا يبقون معلقين في الهواء أحيانًا حتى يضرب عليه پيتر بقبضتيه.

«لا يريدوننا أن نهبط»، قال مفسرًا.

همست وندي مرتعدة «من؟».

لكنه لم يستطع الإجابة أو لم يرغب بها. كانت تنكر بل نائمة على كتفه، لكنه أيقظها وأرسلها لتكون في المقدمة.

كان يقف في الهواء أحيانًا، مصغيًا بحذر ويده على أذنه، ثم ينظر للأسفل بتلكما العينين البراقتين لكأنهما ستثقبان فجوتين في الأرض، ثم تقدم ثانية بعد أن فعل هذه الأمور.

كانت شجاعته مرعبة، إذ قال لجون بلا اكتراث «هل تريد مغامرة الآن، أم أنك تود شرب شايك أولًا؟».

فقالت وندي بسرعة «الشاي أولًا»، وضغط مايكل على يدها بامتنان، لكن جون الأشجع تردد.

«ما نوع المغامرة؟»، سأل بحذر.

أخبره پيتر «ثمة قرصان نائم على السهل تحتنا. فإن رغبت ذهبنا وقتلناه».

«لا أراه»، قال جون بعد صمت طويل.

«أنا أراه».

قال جون بصوت أجش «لنفترض ذلك. لكنه سيستيقظ».

تحدث بيتر بازدراء «أتظنني سأقتله وهو نائم؟! سأوقظه أولًا ثم أقتله. هذه هي طريقتي».

«فهمت! هل قتلت الكثيرين؟!».

«أطنان».

قال جون «يا للروعة»، لكنه اختار أن يشرب الشاي أولًا، ثم سأل إن كان في الجزيرة الكثير من القراصنة، فقال بيتر إنه لم يرَ يومًا كثيرًا منهم. «من القبطان الآن؟».

«هوك»، أجاب بيتر وقد صار وجهه صارمًا جدًا حين نطق هذه الكلمة البغيضة.

«جيمس هوك؟».

«أجل».

ثم أخذ مايكل يبكي، وصار جون يتحدث بغصة، فهما يعرفان سمعة هوك.

همس جون بصوت أجش «كان عريف الملاحين في سفينة بلاكبيرد. إنه أسوؤهم جميعًا، وهو الوحيد الذي كان يخشاه باربكيو»[1].

«إنه هو»، قال بيتر.

«كيف يبدو؟ هل هو ضخم؟».

---

(١) باربكيو هو الاسم المستعار لجون سلفر بطل جزيرة الكنز لروبرت لويس ستفنسن.

«لم يعد ضخمًا جدًا كما كان».

«ماذا تعني؟».

«لقد قطعت جزءًا منه».

«أنت!».

«أجل أنا»، قال پيتر محتدًا.

«لم أعنِ التقليل من شأنك».

«أوه، لا بأس».

«ولكن أي جزء؟».

«يده اليمنى».

«ألا يستطيع القتال إذًا؟».

«بل يستطيع!».

«هل هو أعسر؟».

«لديه خطاف معدني بدلًا من يده اليمنى، وهو يخمش به».

«يخمش!».

«لقد أخبرتك يا جون»، قال پيتر.

«أجل».

«قل أجل أجل يا سيدي».

«أجل أجل يا سيدي».

تابع بيتر حديثه «ثمة أمر واحد. إن على كل ولد تحت إمرتي أن يقسم، وكذلك عليك أنت».

شحب وجه جون.

«أن يقسم على هذا، إن التقينا هوك في قتال مفتوح، عليك أن تتركه لي».

فقال جون مخلصًا «أقسم على ذلك».

كانوا يشعرون بذعر أقل تلك اللحظة، لأن تنك كانت تحلق معهم، واستطاعوا رؤية بعضهم بعضًا في ضوئها. لم يكن بوسعها للأسف أن تطير ببطء مثلهم، ولذا كان عليها أن تدور حولهم في دوائر يتحركون ضمنها مثل هالة. أحبتها وندي كثيرًا، حتى أشار بيتر إلى العلة.

قال «إنها تقول إن القراصنة رأونا قبل حلول الظلام، وقد أخرجوا لونغ توم».

«المدفع الكبير؟».

«أجل، ولا بد أن باستطاعتهم رؤية نورها، وسيطلقونه إن تمكنوا من تقدير قربنا».

«وندي!».

«جون!».

«مايكل!».

«أخبرها أن تبتعد حالًا يا بيتر»، صاح الثلاثة في الوقت نفسه، لكنه أبى.

قال بيتر بجفاء «إنها تظن أننا ضللنا الطريق، كما أنها مذعورة قليلًا. فلا تظنوا أنني سأبعدها في منتصف الطريق وهي تشعر بالخوف!».

انكسرت حلقة النور لوهلة، وقرص شيء ما بيتر قرصة حب صغيرة. توسلت إليه وندي «فقل لها إذًا أن تطفئ نورها».

«لا يمكنها إطفاؤه، وهذا هو الأمر الوحيد الذي تعجز عنه الجنيات. إنه ينطفئ من تلقاء نفسه حين تغط في النوم، مثلما تفعل النجوم».

فقال جون بلهجة آمرة «فقل لها أن تنام في الحال».

«لا يمكنها النوم ما لم تشعر بالنعاس، وهذا الأمر الوحيد الذي تعجز عنه الجنيات».

قال جون عابسًا «يبدو لي أن هذين هما الأمران الوحيدان الجديران بالقيام بهما».

عندئذ قرص قرصة، لكنها ليست قرصة حب.

قال بيتر «لو أن لواحد منا جيبًا، لوضعها فيه». لقد انطلقوا على أية حال بعجلة شديدة، حتى أن أيًا من الأربعة لم يكن لديه جيب.

خطرت له فكرة سعيدة، قبعة جون!

وافقت تنك على التنقل في القبعة إن كانت محمولة باليد،

فحملها جون رغم أنها كانت تأمل أن يحملها بيتر. ثم أخذت وندي القبعة لأن جون قال إنها تضرب ركبته أثناء طيرانه، وهذا، كما سنرى، قد سبب أذى لأن تنكر بل تكره أن تكون خاضعة لوندي.

كان النور مختفيًا تمامًا في القبعة السوداء، وطاروا جميعًا صامتين. كانت أهدأ لحظات الصمت التي عرفوها يومًا، كسرها لمرة صوت لعق بعيد، علله بيتر بأن الحيوانات البرية تشرب عند المخاضة، ثم لمرة ثانية صوت صريف ربما انبعث من احتكاك أغصان الأشجار ببعضها بعضًا، لكنه قال إن ذلك صادر من شحذ الهنود الحمر لسكاكينهم.

وحتى هذه الأصوات توقفت. كانت الوحدة رهيبة بالنسبة لمايكل فصاح «لو أن شيئًا يصدر صوتًا!».

شق الهواء، كأنما استجابة لطلبه، أشد صوت ارتطام مروع سمعه يومًا، فقد أطلق القراصنة النار من لونغ توم.

تردد صدى دويه في الجبال، وبدا إن الصدى يصيح بوحشية «أين هم، أين هم، أين هم؟».

وهكذا عرف الثلاثة المذعورين الفرق بين الجزيرة في الخيال، وبين الجزيرة نفسها وقد صارت حقيقة.

وبينما هدأت السماء ثانية، وجد جون ومايكل نفسيهما في العتمة، وكان جون يلامس الهواء باحتراف، ومايكل يطفو دون أن يعرف كيف يطفو.

همس جون مرتجفًا «هل أصبت؟».

فأجاب مايكل «لم أجرب ذلك بعد».

نعرف الآن أن أحدًا لم يصب بأذى. غير أن بيتر حملته ريح الطلقة بعيدًا إلى البحر، وارتدت وندي إلى الأعلى دون رفيق سوى تنكر بل.

لو أوقعت وندي القبعة في تلك اللحظة، فلم يكن في ذلك بأس.

لست أدري إن خطرت الفكرة فورًا ببال تنكر، أو أنها خططت لذلك في الطريق، لكنها خرجت من القبعة وأخذت تغري وندي بملهياتها.

لم تكن تنك سيئة تمامًا، أو بالأحرى كانت سيئة جدًا الآن، غير أنها من ناحية ثانية، تكون طيبة تمامًا في أوقات أخرى. لا بد أن تكون الجنيات واحدًا من الاثنين، لأنها لا تملك مساحة إلا لواحد من الأمرين في المرة الواحدة لصغر حجمها للأسف. ويسمح لها بالتغيير لكن لا بد أن يكون تغييرًا كاملًا. كانت تغمرها الغيرة من وندي في الوقت الراهن، ولم يكن لوندي أن تفهم طبعًا ما كانت تقوله بصلصلتها الجميلة، وأظن بعضها كان كلامًا بذيئًا، لكنه بدا لطيفًا وحلقت جيئة وذهابًا وهي تعني تمامًا «اتبعيني وسيكون كل شيء على ما يرام».

ما الذي يمكن لوندي المسكينة أن تفعله سوى هذا؟ نادت بيتر وجون ومايكل، ولم تحصل إلا على صدى ساخر يرد عليها. لم تعرف أن تنك تكرهها بقوة كما تكره أي امرأة، لذا تبعت تنك إلى مصيرها، مندهشة ومترنحة في طيرانها.

الفصل الخامس

الجزيرة تستيقظ

استيقظت الحياة في نفرلاند منذ أن استشعرت بأن بيتر في طريق العودة. ربما علينا أن نستخدم المبني للمجهول ونقول أوقظت، غير أن من الأفضل استخدام الفعل استيقظت الذي يستخدمه بيتر دومًا.

كانت الأمور على الجزيرة هادئة تمامًا في غيابه، فالجنيات زدن ساعة راحة في الصباح، والحيوانات ترعى صغارها، والهنود الحمر يتناولون الطعام كثيرًا لستة أيام وست ليالٍ، وحين يلتقي القراصنة والصبية التائهين يكتفون بعضّ الإبهام لبعضهم بعضًا وحسب[1]. ولكن بعودة بيتر الذي يكره البلادة، عادوا جميعًا إلى طريق الصواب

---

(١) إهانة قديمة، وهي النسخة الشكسبيرية من رفع الوسطى للشخص المقصود إهانته. ذكر هذا في مسرحية روميو وجوليت (ترجمة محمد عناني) في مشهد بين غريغوري وسمسون وإبراهام، «كان من عادات الإيطاليين في القرن السادس عشر، كما يقول كونجريف، أن يوجهوا الإهانة إلى خصومهم بأن يسخروا منهم بهذه الطريقة، ووضع ظفر الإبهام في الفم بين أول القواطع والجز عليه بهذه الأسنان كي يصدر صوتًا»، ص ٢٧٢.

ثانية، فلو وضعت أذنك على الأرض الآن، لسمعت الجزيرة بكاملها تمور بالحياة.

كانت القوى الأساسية في الجزيرة هذا المساء قد انتشرت كما يلي، خرج الصبية التائهون للبحث عن بيتر، وخرج القراصنة للبحث عن الصبية التائهين، وخرج الهنود الحمر للبحث عن القراصنة، وخرجت السباع للبحث عن الهنود الحمر. كانوا يدورون ويدورون في أنحاء الجزيرة، لكنهم لم يلتقوا لأنهم جميعًا كانوا يمضون بالسرعة نفسها.

كانوا كلهم متعطشين لإراقة الدماء عدا الصبية، الذين أحبوا ذلك القانون، غير أنهم خرجوا الليلة للترحيب بقائدهم. يختلف عدد الصبية على الجزيرة طبعًا، لأن بعضهم قتلوا أو ما شابه، وحين يتبين أنهم كبروا، وهو ما يخالف القوانين، كان بيتر يطردهم، لكنهم كانوا ستة في هذه المرة، إذا حسبنا التوءمين اثنين. لنتظاهر بأننا نضطجع هناك بين أعواد قصب السكر ونراقبهم وهم يمشون بصف واحد، وكل منهم يضع يده على خنجره.

كان بيتر يمنعهم من أن يشبهوه بتاتًا، فارتدوا جلود الدببة التي ذبحوها بأنفسهم، التي يبدون فيها ممتلئين ومكتسين بالفراء إذ يتدحرجون حين يقعون. وقد صاروا بعد ذلك واثقي الخطى.

كان توتلز أول من يمر، ليس لأنه شجاع البتة بل لأنه الأسوأ حظًا من كل العصابة المرحة. فقد مر بمغامرات أقل من أي واحد منهم، لأن الأحداث الكبيرة كانت تقع دومًا ما إن يبتعد قليلاً،

ويكون كل شيء هادئًا، فينتهز الفرصة للخروج لجمع بعض الأغصان لإشعال النار، وحين يعود يكون الآخرون يمسحون أثر الدم. كسى الحظ السيء مشيته بشيء من الكآبة، ولكنها جملت طباعه بدلًا من أن تفسدها، فكان أكثر الفتية تواضعًا. إن في الأجواء خطرًا من أجلك الليلة يا توتلز المسكين اللطيف، وانتبه من المغامرة القادمة إليك، التي ستغمرك، إن قبلتها، بأشد البلاء. يا توتلز، إن الجنية تنك، التي عقدت العزم على أن تكون لئيمة هذه الليلة، تبحث عن أداة وتراك أكثر من يمكن خداعه من الفتية. فاحترس من تنكر بل.

ليته يستطيع سماعنا، لكننا لسنا على الجزيرة حقًا، وها هو يمر بنا وهو يعض براجمه.

ثم يأتي نبز، المرح والدمث، يتبعه سلايتلي، الذي يقطع أغصان الشجر لصنع صفارات ويرقص جذِلًا على ألحانه. إن سلايتلي أكثر الفتية اعتدادًا بنفسه، فهو يظن أن باستطاعته تذكر الأيام الخوالي قبل ضياعه، بآدابها وعاداتها وجعله ذلك مزهوًا زهوًا بغيضًا. والرابع هو كيرلي، إنه شرير وكثيرًا ما يضطر إلى تسليم نفسه حين يقول بيتر بحزم «ليتقدم إلى الأمام من قام بهذا الفعل»، فيتقدم إلى الأمام حسب الأوامر تلقائيًا، سواء أكان هو من فعل ذلك أم لا. وأخيرًا لدينا التوءمان، اللذان يتعذر وصفهما لأن سنعرف أننا نصف الشخص الخطأ. لم يعرف بيتر أبدًا ما كانه التوءمان تمامًا، ولم يكن يسمح لعصبته بمعرفة أي شيء يجهله هو، لذا كان هذان

الاثنان دومًا غامضين بشأن نفسيهما، وحاولا جاهدين أن يكونا مرضيين ببقائهما قريبين معًا بطريقة اعتذارية نوعًا ما.

اختفى الأولاد في العتمة، وبعد صمت، لكنه ليس صمتًا طويلًا، لأن الأمور تمضي بسرعة على الجزيرة، اقتفى القراصنة أثرهم. ونسمعهم قبل أن نراهم، يغنون الأغنية المخيفة ذاتها دائمًا:

توقفوا وثبتوا الشراع، وارفعوه
سنذهب في رحلة قرصنة
وإن افترقنا بفعل إطلاق النار
فسنلتقي هناك في الأسفل!

لم تعلق العصابة ذات المظهر الماكر في صف على سقالة الإعدام يومًا. هنا، يظهر الإيطالي الوسيم شيكو، الذي حفر حروف اسمه بالدم على ظهر آمر السجن في غوا، متقدمًا قليلًا ورأسه دائمًا وأبدًا إلى الأرض يصغي إلى الأصوات وذراعاه الكبيران عاريان، ويحلي أذنيه بعملتين إسبانيتين فضيتين. وخلفه الأسود العملاق ذو الأسماء الكثيرة بعد أن تخلى عن الاسم الذي ما زالت الأمهات الملونات يخفن به صغارهن على ضفاف غويجو مو. إنه بِلي جكس، الذي يغطي الوشم كل شبر من جسده، هو ذاته بِلي جكس الذي أطلق عليه فلنت عددًا من الطلقات على سفينة والرَس قبل أن يترك كيس النقود الذهبية. وكوكسن، الذي قيل إنه أخو ميرفي الأسود (غير أن هذا لم يثبت أبدًا)، والسيد ستاركي الذي كان يومًا مرشدًا في مدرسة حكومية ولم يزل نيّقًا في أساليبه في القتل. ثم سكايلايتس (مورغان

سكايلايتس)[1]، والملاح الإيرلندي سمي، الرجل اللطيف، الذي لا بد من الإقرار بأنه يطعن دون إهانة، وكان المنشق الوحيد في عصابة هوك. ونودلر الذي كانت يداه مثبتتين إلى الخلف، وروبت. أما مولن وألف ماسن وغيرهم من الأشرار الآخرين، فهم معروفون ومهابون منذ زمن بعيد في البحر الكاريبي.

وبينهم أكثر الجواهر سوادًا وحجمًا في الأماكن المظلمة، الذي يدعى جيمس هوك أو جاس كما يكتب هو نفسه. هوك الذي قيل إنه الوحيد الذي يهابه سي كوك[2]. كان يستلقي براحة على عربة بسيطة يجرها رجاله ويدفعونها، وكان له خطاف معدني عوضًا عن يده اليمنى، يشجعهم به بين الفينة والأخرى ليزيدوا سرعتهم. كان هذا الرجل الرهيب يعاملهم مثل الكلاب ويناديهم مثل الكلاب وهم يطيعونه. كان شديد النحول وله سحنة داكنة البشرة، وشعره مصفف بخصل طويلة، تبدو من بعيد مثل شموع سوداء، ومنحت هيئته الحسنة مسحة متوعدة فذة. كان لعينيه لون زرقة زهرة لا تنسيني[3]، وحزن عميق، إلا حين يغرس خطافه فيك فعندها تظهر فيهما بقعتان حمراوان وتشعلانهما على نحو رهيب. ما زال في سلوكه شيء من آداب الرجل المهذب، حتى إنه ليمزقك بكبرياء، وقيل لي إنه كان حكّاءً مشهورًا. لم يكن يومًا أكثر لؤمًا مما يكون عليه حين

(١) غويجو مو: نهر خيالي. فلنت من شخصيات جزيرة الكنز وسمّى جون سلفر ببغاءه بهذا الاسم أيضًا سخرية من فلنت، ووالرَس هي سفينته القديمة. ميرفي الأسود ومورغان قرصانان حقيقيان.

(٢) اسم آخر لجون سلفر ويعني طاهي البحر، وكانت هذه مهنته الأساسية.

(٣) تسمى أيضًا زهرة أذن الفار.

يكون أكثر تهذيبًا، ولعل هذا أصدق اختبار للتربية، وأناقة حديثه حين يشتم، والأكثر غرابة سلوكه المميز، جعله ذلك كله امرأ من طبقة مختلفة عن بقية عصبته. كان رجلًا يتحلى بشجاعة لا تقهر، قيل عنه إن الأمر الوحيد الذي يجفل منه هو مرأى دمه الكثيف ذي اللون الغريب. أما ثيابه، فقد قلد الثياب الفاخرة التي تقترن باسم تشارلز الثاني، فقد سمع في مرحلة سابقة من مسيرته أن فيه شبهًا غريبًا من ستوارت السيء الحظ، وكان له في يده علاقة من ابتكاره مكنته من تدخين سيجارين في المرة الواحدة. غير أن مخلبه المعدني كان الجزء الأشرس منه بلا شك.

هلموا لنقتل قرصانًا الآن، لنشرح طريقة هوك. وسيقوم سكالايتس بذلك. إذ يميل عليه سكايلايتس بحمق أثناء مشيهم، مجعدًا ياقته الدانتيلا، فيمتد الخطاف للأمام، وينطلق صوت تمزق وصيحة واحدة، ثم تركل الجثة جانبًا، ويتابع القراصنة سيرهم. إنه حتى لم يخرج السيجار من فمه.

هذا هو الرجل المخيف الذي سيواجهه پيتر بان، فمن منهما سيفوز يا ترى؟

في مسيرة القراصنة الذين يتسللون بهدوء على درب الحرب، الذي لا تراه العيون غير الخبيرة، يأتي الهنود الحمر وعيون كل واحد منهم يقظة. كانوا يحملون الفؤوس والسكاكين، وتلمع أجسادهم العارية من الطلاء والزيت. وعلقت حولهم فروات الرؤوس، للصبية والقراصنة، لأن هؤلاء هم قبيلة پيكانيني، ويجب ألا يخلط

بينها وبين قبيلة ديلاور أو هرون الرقيقي القلوب[1]. في طليعة الأربعة، يأتي بغ لتل پانتر [النمر العظيم] الضخم، هندي أحمر انتزع الكثير من فروات الرؤوس التي أعاقت تقدمه في وضعه الراهن. أما في الخلف، في مكان الخطر الأعظم، فتمشي تايغر ليلي، منتصبة بكبرياء، أميرة معتدة بنفسها. إنها الأجمل بين إلهات الصيد داكنات البشرة وجميلة قبيلة الپيكانيني، طورًا تكون مغناجة باردة وطورًا مغرمة. ليس من هندي أحمر لم يعان من تمرد الزوجات، لكنها كانت تحطم المذبح بفأس. انظر كيف يدوسون على الأغصان المتساقطة دون أن يصدر منهم أدنى صوت. والصوت الوحيد الذي يمكن سماعه هو نفسهم الثقيل نوعًا ما. والحقيقة أنهم كلهم بدينون قليلًا بعد وجبة كبيرة، لكنهم سيتخلصون من هذا مع مرور الوقت. كان ذلك على أية حال يشكل خطرهم الرئيس في هذه اللحظة.

يختفي الهنود الحمر مثلما يظهرون، مثل الظلال، ثم سرعان ما تحتل مكانهم السباع في مسيرة عظيمة ودقيقة، الأسود والنمور والدببة، ثم الحيوانات الأصغر المتوحشة الكثيرة التي تهرب منها، لأن كل نوع من السباع، وبشكل أكثر تحديدًا، كل أكلة الإنسان، تعيش جنبًا إلى جنب على الجزيرة المحبوبة. تتدلى ألسنتها خارجًا، إنها جائعة الليلة.

---

(١) كلمة تستخدم على نطاق واسع للإشارة إلى الأطفال السود وسكان أستراليا الأصليين. قبيلة ديلاور كانت أول قبيلة من الهنود الحمر توقع اتفاقية مع الولايات المتحدة، وأجبروا على الجلاء عن أراضيهم شرقًا والانتقال إلى أوهايو ومناطق أخرى. قبيلة هرون: تعرف باسم قبيلة وندات أيضًا وهي من سكان كندا الأصليين، سكنوا على الساحل الشمالي لبحيرة أونتاريو.

ثم حين يمر كل أولئك، يأتي آخر الشخصيات، التمساح العملاق. وسنرى عمن يبحث في الوقت الراهن.

يمر التمساح، لكن سرعان ما يظهر الفتية ثانية، لأن المسيرة يجب أن تستمر بلا نهاية حتى يتوقف أحد الأطراف أو يغير سرعته. ثم يبدؤون العراك سريعًا.

كلهم يبقون نظرهم حادًا على المقدمة، غير أن أحدًا منهم لم يتوقع أن يتسلل الخطر من الخلف، وهذا يؤكد لك واقعية الجزيرة.

كان الأولاد أول من خرج من الدائرة، فرموا بأنفسهم على المرج، قريبًا من مخبئهم تحت الأرض.

«أتمنى أن يعود بيتر»، قال كل واحد منهم بقلق، رغم أنهم كانوا يفوقون قائدهم طولًا وعرضًا.

«أنا الوحيد الذي لست بخائف من القراصنة»، قال سلايتلي بنبرة تحاشت كونه المفضل للجميع، لكن لعل صوتًا بعيدًا أقلقه، لأنه أضاف بسرعة «لكني أتمنى أن يعود سريعًا، ويخبرنا إن كان قد عرف أكثر عن سندريلا».

تحدثوا عن سندريلا، وكان توتلز واثقًا جدًا من أن أمه تشبهها كثيرًا.

كان بوسعهم الحديث عن الأمهات في غياب بيتر فقط، لأنه حظر الموضوع بوصفه سخيفًا.

قال لهم نيبز «كل ما أذكره عن أمي أنها كانت تقول لأبي كثيرًا

أوه، كم أتمنى لو كان لي دفتر صكوك خاص بي، ولست أدري ما دفتر الصكوك، غير أنني أود لو كان بوسعي منح أمي واحدًا».

سمعوا صوتًا بعيدًا أثناء حديثهم، لم نكن أنت وأنا لنسمع شيئًا، لأننا لسنا من سكان الغابات، لكنهم سمعوا، وكانت الأغنية المخيفة:

مرحى مرحى لحياة القرصان
وللعلم الذي تزينه جمجمة وعظمان
للوقت السعيد، وحبل القنب
ومرحى لديفي جونز[1]

كان الفتية التائهين على الفور.... ولكن أين هم؟ ليسوا هنا، لم يكن للأرانب أن تختبئ بأسرع منهم.

سأخبركم بمكانهم. كانوا جميعًا، عدا نيبز الذي اندفع مسرعًا ليستكشف، كانوا في مخبئهم تحت الأرض، وهو منزل بهيج جدًا نرى جزءًا كبيرًا منه الآن. لكن كيف وصلوه؟ لأنه ما من مدخل يرى، فليس هنا سوى كومة من الحطب يسد فم الكهف إن أزيح. انظر عن كثب وسترى سبعة أشجار كبيرة؛ في الجذع المجوف لكل واحدة منها فتحة كبيرة بحجم الفتى. كانت هذه هي المداخل السبعة إلى المنزل تحت الأرض، التي كان يبحث هوك عنها بلا جدوى في هذه الأقمار العديدة، فهل سيجدها الليلة؟

(١) قاع البحر، يخافه القراصنة لأن حياتهم قصيرة، إما لتحطم السفينة أو وقوعهم قتلى.

حين تقدم القراصنة لمحت عين ستاركي السريعة نيبز يختبئ في الغابة، فومض مسدسه حالًا، لكن خطافًا معدنيًا جذبه من كتفه.

«اتركني أيها القبطان»، قال متلويًا.

وها نحن نسمع صوت هوك للمرة الأولى، لقد كان صوتًا أسود «أعد مسدسك أولًا»، قال متوعدًا.

«كان واحدًا من الفتية الذين تكرههم، كان بوسعي إطلاق النار عليه وقتله».

«أجل، وسيجلب الصوت لنا تايغر ليلي من الهنود الحمر أيضًا، هل تود خسارة فروة رأسك؟».

«هل أتبعه أيها القبطان؟»، سأل سمي اليائس، «وأدغدغه بجوني المبرام؟» يطلق سمي أسماء مسلية على كل شيء، وكان اسم سيفه القصير جوني المبرام، لأنه يبرمه داخل الجرح. يمكن للمرء أن يذكر عددًا من الصفات الحلوة في سمي، فهو مثلًا يمسح نظارته بدلًا من سلاحه بعد القتل.

«جوني سلاح هادئ»، قال مذكّرًا هوك.

فقال هوك بغضب «ليس الآن يا سمي، إنه واحد فحسب، وأنا أود التخلص من السبعة كلهم. تفرقوا وابحثوا عنهم».

اختفى القراصنة بين الأشجار، وكان قائدهم وسمي وحيدين للحظة. زفر هوك تنهيدة ثقيلة، ولست أدري لذلك سببًا، ربما الجمال

المساء الرقيق. لكن غلبته رغبة أن يفضي لعريف ملاحيه المخلص بقصة حياته. تحدث طويلًا وجديًا، لكن سمي الذي كان غبيًا بعض الشيء، لم يعرف مطلقًا معنى ذلك الحديث كله.

ثم سمع كلمة بيتر على الفور.

قال هوك بتأثر «أريد قائدهم بيتر بان أكثر من الآخرين. فقد كان هو من قطع ذراعي». ولوح بالخطاف متوعدًا «لقد انتظرت طويلًا لأصافحه بهذا، أوه، سأقطعه إربًا».

قال سمي «ومع ذلك، أسمعك كثيرًا تقول إن هذا الخطاف يساوي عشرين يدًا تمشط الشعر وغيرها من الأعمال المنزلية».

فأجابه القائد «أجل، لو كنت أمًا لصليت أن يكون لي أطفال يولدون بهذا بدلًا من تلك»، ونظر نظرة فخر ليده المعدنية ونظرة ازدراء لليد الأخرى، ثم عبس ثانية.

«لقد رمى بيتر ذراعي إلى تمساح صدف أنه كان يمر بالقرب»، قال مجفلًا.

قال سمي «كثيرًا ما رأيت خوفك الغريب من التماسيح».

فصحح له هوك «ليس من التماسيح، بل من ذاك التمساح»، ثم قال خافضًا صوته «لقد أحب ذراعي كثيرًا يا سمي، حتى إنه تبعني منذئذ، من بحر لآخر ومن بر لآخر، لاعقًا شفتيه لأجل ما تبقى مني».

فقال سمي «إنه إطراء بطريقة ما».

نبح هوك بفظاظة «لا أريد إطراء كهذا. أريد بيتر الذي منح الحيوان رغبته بي».

وجلس على فطر كبير واختلج صوته، ثم قال بصوت أجش «كان بوسع ذلك التمساح أن يأكلني قبل هذا يا سمي، إلا أنه لحسن الحظ ابتلع ساعة تدق داخله، ولذا قبل أن يصلني أسمع الدقات وأهرب». ضحك لكن بطريقة مخيفة.

قال سمي «يومًا ما ستتعطل الساعة، ثم سيمسك بك عندها».

بلل هوك شفتيه الجافتين وقال «أجل، هذا هو الخوف الذي يستولي علي».

منذ أن جلس كان يشعر بالدفء بشكل غريب، فقال «هذا حار يا سمي. اللعنة، إني أحترق».

ثم تفحصا الفطر الذي كان بحجم شيء مجهول على اليابسة وصلابته، وحاولا أن يجراه للأعلى، فنزع بأيديهما بسهولة، لأنه كان بلا جذور. ولكن الأغرب كان ذلك الدخان الذي بدأ بالتصاعد، فنظر القرصانان لبعضهما بعضًا وقال معًا بدهشة «إنها مدخنة!».

كان قد اكتشفا في الحقيقة مدخنة المنزل تحت الأرض، وكان من عادة الأولاد أن يسدوها بفطر حين يكون العدو في الجوار.

لم يتصاعد منها الدخان فحسب، بل أصوات الصغار أيضًا، لأن الفتية شعروا بالأمان الشديد في مخبئهم فتحدثوا بمرح. استمع

القرصانان بخوف، ثم أعادوا الفطر مكانه. نظرا حولهما ووجدا الفتحات في الأشجار السبع.

همس سمي متحمسًا جوني المبرام بعصبية «هل سمعتهم يقولون إن پيتر پان ليس في المنزل؟».

هز هوك رأسه إيجابًا، ووقف طويلًا شارد الذهن، ثم أشرق وجهه الداكن بابتسامة مخيفة. كان سمي واقفًا ينتظر «أفصح عن خطتك أيها القبطان» صاح متحمسًا.

أجاب هوك ببطء صارًا على أسنانه «أن نعود الى السفينة ونصنع كعكة كبيرة لذيذة بسماكة لذيذة ونغلفها بالسكر الأخضر. لا بد أن في الأسفل غرفة واحدة فحسب، لأنه ليس لدينا إلا مدخنة واحدة. لم يخطر ببال المناجذ السخيفة أنهم بحاجة إلى باب، وهذا يعني أن ليس لديهم أم. سنترك الكعكة على شاطئ بحيرة الحوريات، لأن هؤلاء الأولاد يسبحون فيها دومًا ويلعبون مع الحوريات. سيرون الكعكة وسيلتهمونها، لأنهم، باعتبار أن لا أم لديهم، لا يعرفون خطورة تناول كعكة غنية رطبة»، فانفجر ضاحكًا، «آه، سيموتون».

أصغى سمي بإعجاب متزايد.

«إنها أكثر خطة مكرًا وجمالًا سمعت بها يومًا»، صاح ورقصا من نشوتهما وغنيا:

توقفوا وثبتوا الشراع، حين أظهر
سيستولي عليهم الخوف

وسيحل الحطام بعظامكم
إن صافحتم هذا الخطاف.

بدأا الغناء لكنهما لم ينهيا أغنيتهما أبدًا، لأن صوتًا آخر انبعث وجمدهما. كان صوتًا صغيرًا في بادئ الامر يمكن لورقة شجر تسقط عليه أن تكتمه، لكن ما إن صار أقرب حتى بدا أكثر وضوحًا.

تك تك تك تك

وقف هوك مرتعشًا، وإحدى قدميه معلقة في الهواء.

قال لاهثًا «إنه التمساح،» وفر هاربًا يتبعه عريف ملاحيه.

كان التمساح حقًا، فقد مر بالهنود الحمر الذين كانوا في أثر القراصنة الآخرين. لكنه كان يزحف ملاحقًا هوك.

خرج الفتية ثانية إلى البراح، لكن مخاطر الليل لم تنته بعد، لأن نيبز اندفع الآن وسطهم لاهثًا، يلاحقه قطيع من الذئاب. كانت ألسنة المطاردين تتدلى خارجًا، وكان صوت عوائها مروعًا.

«أنقذوني، أنقذوني!»، صرخ نيبز واقعًا على الأرض.

«وماذا بوسعنا أن نفعل، ماذا بوسعنا أن نفعل؟»،

كان سيسعد بيتر معرفته أن تفكيرهم كان ينصب عليه في هذه اللحظات المخيفة.

«ما الذي سيفعله بيتر؟» هتفوا جميعهم سويًا.

ثم أضافوا بالنفس نفسه تقريبًا «سينظر إليهم بيتر من بين ساقيه».

ثم، «لنفعل ما يفعله بيتر».

إنها أنجع طريقة فعلًا لهزيمة الذئاب، وانحنوا مثل فتى واحد ونظروا من بين سيقانهم.

كانت اللحظة التالية هي اللحظة الأطول، لكن النصر جاء سريعًا، إذ أنزلت الذئاب ذيولها وهربت.

نهض نيبز، وظن الآخرون أن عينيه ما زالتا تريان الذئاب، لكن لم تكن الذئاب ما يراه الآن.

«لقد رأيت شيئًا عجيبًا»، هتف وهم يلتفون حوله بحماس، «رأيت طائرًا كبيرًا أبيض يطير بهذا الاتجاه».

«ما نوع الطير برأيك؟».

قال نيبز ممتلئًا رهبة «لست أدري لكنه بدا منهكًا جدًا، وكان ينوح وهو يطير، «وندي المسكين»».

«وندي المسكين؟».

قال سلايتلي بسرعة «أذكر طيورًا تدعى طيور الوندي».

«انظروا ها هو يأتي»، قال كيرلي مشيرًا إلى وندي في السماء.

كانت وندي الآن قريبة منهم، وكان بوسعهم سماع صرختها الحزينة. لكن سرعان ما علا صوت تنكر بل الحاد، فقد تخلت الجنية الغيورة عن كل أقنعة الصداقة، وكانت تندفع بضحيتها بكل اتجاه، وتقرصها في كل مرة تلمسها بها.

صاح الفتية المتعجبون «أهلًا يا تنك».

رن رد تنك «يريد منكم بيتر أن تطلقوا النار على طير الوندي».

لم يكن من طبعهم السؤال حين يأمر بيتر، «فلنفعل ما قاله بيتر»، هتف الفتية السذج، «أسرعوا هاتوا السهام والأقواس».

ونزلوا كلهم من فتحات أشجارهم عدا توتلز الذي كان يحمل قوسه وسهامه معه، ورأته تنك ففركت يديها الصغيرتين.

صاحت «أسرع يا توتلز، أسرع. سيكون بيتر مسرورًا جدًا».

وضع توتلز سهمًا في قوسه بحماس وصاح «ابتعدي عن الطريق يا تنك» ثم أطلقه، وسقطت وندي على الأرض وقد انغرس السهم في صدرها.

الفصل السادس
البيت الصغير

كان توتلز الأحمق يقف مثل قائد منتصر على جسد وندي حين خرج الفتية الآخرون من أشجارهم مسلحين.

فصاح بهم بكبرياء «لقد تأخرتم كثيرًا، رميت الوندي، وسيسر مني بيتر كثيرًا».

صاحت تنكر بل فوق رأسه «أحمق سخيف!» وأسرعت لتختبئ. لم يسمع الآخرون هذا وتحلقوا حول وندي، وخيّم على الغابة صمت رهيب وهم ينظرون، ولو كان قلب وندي ينبض لأمكنهم أن يسمعوه جميعًا.

كان سلايتلي أول من تحدث وقال بصوت وجل «هذا ليس طائرًا. أظنها سيدة حتمًا».

«سيدة؟»، قال توتلز وارتعش.

وقال نيبز بصوت أجش «وقد قتلناها». ثم خلعوا قبعاتهم جميعًا.

قال كيرلي «فهمت الآن، كان بيتر يجلبها لنا». ثم ألقى بنفسه على الأرض حزينًا.

قال أحد التوءمين «سيدة لتعتني بنا أخيرًا، وها أنت قتلتها».

كانا يشعران بالأسى من أجله، لكن بمزيد من الأسى من أجل نفسيهما، وحين دنا منهما، ابتعدا عنه.

كان وجه توتلز شاحبًا، غير أن فيه الآن مهابة لم تر فيه قبلًا.

فقال مفكرًا «لقد فعلتها، حين كانت السيدات يأتين إلي في أحلامي كنت أقول أمي الجميلة، أمي الجميلة، وحين جاءت في الحقيقة رميتها».

ثم ابتعد ببطء.

نادوه مشفقين «لا تذهب».

«علي الذهاب، فأنا خائف من بيتر كثيرًا» أجاب مرتعدًا.

فسمعوا في تلك اللحظة المأساوية صوتًا جعل قلب كل واحد منهم يرتفع إلى فمه، فقد سمعوا هتاف بيتر.

«بيتر!»، صاحوا، إذ كانت هذه هي الطريقة التي يعلن بها عن عودته.

«خبئوها»، همسوا وتجمعوا بسرعة حول وندي، لكن توتلز وقف وحيدًا.

وانطلقت الصرخة الرنانة ثانية، وهبط بيتر أمامهم «تحياتي يا

فتيان»، صاح وحيوه بتلقائية ثم خيم الصمت ثانية.

فتجهم.

فقال بحرارة «لقد عدت، فلم لا تهتفون؟».

فتحوا أفواههم لكن الهتاف لم يخرج. فتغافل لعجلته ليخبرهم بالأنباء العظيمة.

«لدي أخبار رائعة يا أولاد. لقد جلبت أخيرًا أمًا لكم جميعًا»، صاح.

ولم يصدر عنهم صوت باستثناء صوت مكتوم من توتلز حين جثا على ركبتيه.

سأل بيتر وقد أخذ يستاء «ألم تروها؟ لقد طارت بهذا الاتجاه».

«ويلي»، قال صوت، ثم قال آخر «يا له من يوم حزين».

نهض توتلز وقال بهدوء «سأريها لك يا بيتر»، وحين رأى الآخرين ما زالوا يخفونها قال «تراجعا أيها التوءمان، دعا بيتر يرها».

فتراجعوا كلهم وسمحوا له بأن يرى، وبعد أن نظر لوقت قصير لم يدر ما الذي يفعله تاليًا.

فقال بضيق «إنها ميتة، ربما تشعر بالذعر لأنها ميتة».

فكر في الوثب بطريقة مضحكة حتى تصير بعيدة عن مرمى نظره، ثم لا يقترب من تلك البقعة أبدًا. كانوا سيشعرون بالسعادة كلهم لو أنه فعل ذلك.

غير أنه انتزع السهم المغروس في قلبها، وواجه عصابته.

«سهم من هذا؟» سأل بحزم.

«سهمي يا بيتر»، قال توتلز الجاثي على ركبتيه.

«يا ذا اليد الخسيسة»، قال بيتر ورفع السهم ليستخدمه خنجرًا.

لم يجفل توتلز، بل عرى صدره وقال بثبات «اضرب يا بيتر، اضرب حقًا».

رفع بيتر السهم مرتين، وسقطت يده مرتين وقال بحزن «لا أستطيع، ثمة ما يعيق يدي».

ونظر الجميع إليه في عجب، عدا نيبز الذي نظر لوندي لحسن الحظ.

«إنها هي، السيدة وندي، انظروا لذراعها»، صاح.

من الجميل أن نقول إن وندي رفعت ذراعها. انحنى نيبز عليها واستمع بوقار وهمس «أظنها قالت توتلز المسكين».

«إنها حية»، قال بيتر باقتضاب.

هتف سلايتلي سريعًا «السيدة وندي حية».

ثم جثا بيتر قربها وعثر على جوزته، أنتم تذكرون أنها وضعتها في سلسلة ترتديها حول عنقها.

قال «انظروا، لقد ضرب السهم هذا، إنها القبلة التي منحتها لها وقد أنقذت حياتها».

فتدخل سلايتلي بسرعة «أنا أذكر القبل، دعني أراها. أجل، إنها قبلة».

لم يسمعه بيتر، فقد كان يتوسل إلى وندي لتتماثل للشفاء سريعًا، فيتمكن من أن يريها الحوريات. لم تستطع الرد بطبيعة الحال، فقد كانت في حالة إغماء مخيفة، لكن من فوق رؤوسهم جاءت نغمة حزينة.

قال كيرلي «اسمعوا تنك، إنها تبكي لأن الوندي على قيد الحياة».

ثم كان عليهم أن يخبروا بيتر بجريمة تنك، ولم يسبق لهم أن رأوه يومًا غاضبًا جدًا هكذا.

صرخ «اسمعي يا تنكر بل، لست صديقًا لك بعد اليوم. انصرفي عني إلى الأبد».

فطارت إلى كتفه وتوسلت، لكنه نفضها بعيدًا. ولم يرق قلبه تمامًا حتى رفعت وندي ذراعها ثانية، فقال «حسن، ليس إلى الأبد، بل لأسبوع كامل».

هل تظنون أن تنكر بل كانت ممتنة لوندي لرفعها يدها؟ كلا طبعًا، بل لم ترغب بقرصها يومًا أكثر من الآن. إن الجنيات غريبات حقًا، وبيتر الذي يفهمهن تمامًا، يتشاجر معهن كثيرًا.

ولكن ما الذي يمكن عمله بشأن حالة وندي الصحية الحرجة؟

اقترح كيرلي «دعونا نحملها إلى البيت في الأسفل».

فقال سلايتلي «أجل، هذا ما يفعله المرء للسيدات».

إلا أن بيتر قال «كلا، كلا. يجب ألا تلمسوها، فلن يكون ذلك أمرًا لائقًا».

فقال سلايتلي «هذا ما أفكر به».

فقال توتلز «ولكنها ستموت إن استلقت هنا». فأقر سلايتلي «بلى ستموت، لكن ليس أمامنا حل».

هتف بيتر «بلى، لنبني بيتًا صغيرًا حولها».

فسروا جميعًا وأمرهم «أسرعوا، ليجلب لي كل واحد منكم أفضل ما لدينا، لنجعل بيتنا أنيقًا».

وفي لحظة كانوا جميعًا مشغولين مثل الخياطين ليلة الزفاف، وانطلقوا مسرعين هنا وهناك، في الأسفل لإحضار أغطية الفراش، وفي الأعلى لجمع الحطب. ومن برأيكم ظهر أثناء إنهماكهم في ذلك سوى جون ومايكل؟ لقد مشيا على الأرض متثاقلين وناما واقفين، ثم توقفا واستيقظا، ومشيا خطوة أخرى ثم ناما ثانية.

صاح مايكل «جون، جون، استيقظ. أين نانا وأمي يا جون؟».

ثم فرك جون عينيه وهمهم «هذا حقيقي، لقد طرنا حقًا».

ولا بد من القول إنهما شعرا بكثير من الراحة لرؤية بيتر.

«مرحبًا يا بيتر»، قالا.

«مرحبًا»، قال بيتر بود، رغم أنه نسيهما تمامًا. فقد كان مشغولًا

هذه اللحظة بقياس وندي بقدميه ليرى حجم البيت الذي تحتاجه. كان ينوي بطبيعة الحال أن يترك مساحة للكراسي والطاولة، وراقبه كل من جون ومايكل.

«هل وندي نائمة؟»، سألاه.

«أجل».

فقال مايكل «دعنا نوقظها يا جون، ونطلب منها أن تعد العشاء لنا»، ولكن ما إن قال ذلك حتى اندفع بعض من الفتية الآخرين حاملين الأغصان لبناء البيت، فهتف «انظر إليهم!».

قال بيتر بصوته الآمر «انظر ما الذي يستطيع هذان الولدان المساعدة فيه لبناء البيت يا كيرلي».

«سمعًا وطاعة يا سيدي».

«نبني بيتًا؟»، سأل جون متعجبًا.

فقال كيرلي «من أجل الوندي».

فقال جون مشدوهًا «من أجل وندي؟ ولمَ؟ إنها ليست سوى فتاة».

فشرح له كيرلي «ولهذا فإننا خدم لها».

«أنتم؟ خدم لوندي!».

قال بيتر «أجل، وأنتما أيضًا. اذهبا معهم».

أُخذ الأخوان ليقطعا ويحفرا ويحملا. ثم أمرهم بيتر «اصنعوا

الكراسي ووِقاء الموقد أولًا، ثم سنبني البيت حولها».

«أجل. هكذا يبنى البيت، لقد تذكرت الأمر كله»، قال سلايتلي.

فكر بيتر بكل شيء «استدع طبيبًا يا سلايتلي».

«أجل، أجل»، قال سلايتلي واختفى وهو يحك رأسه. لكنه عرف أن عليه إطاعة بيتر، فعاد بعد دقيقة واضعًا قبعة جون مظهرًا الجد.

فقال بيتر وهو يتجه إليه «أستميحك عذرًا يا سيدي، هل أنت طبيب؟».

كان الفرق بينه وبين الفتيةِ الآخرين في وقت كهذا أنهم يعرفون أن ذاك تخيل، في حين أنه يرى أن الخيال والواقع هما الأمر نفسه تمامًا. وهذا أزعجهم أحيانًا، مثلما حدث حين كان عليهم أن يتخيلوا أنهم تناولوا عشاءهم.

وإن أخفقوا في التخيل فسيضربهم على براجمهم.

«أجل يا سيدي الصغير»، بقلق أجاب سلايتلي الذي كان له براجم مشققة.

فقال بيتر «أرجوك يا سيدي، إن السيدة مريضة جدًا».

كانت تستلقي قرب أقدامها، لكن بدا أن سلايتلي لا يراها.

فقال «توت توت توت[1]، أين تستلقي؟».

---

(١) صوت يطلق عند الاستهجان.

«في الغابة هناك». «سأضع مرآة في فمها»، قال سلايتلي وتظاهر بفعل ذلك وانتظر بيتر. كانت لحظة قلق حين سحبت المرآة.

«كيف هي؟»، سأله بيتر.

«توت توت توت، لقد شفاها هذا»، قال سلايتلي.

هتف بيتر «أنا سعيد».

قال سلايتلي «سأعود في المساء. أعطها شاي لحم البقر[1] في كوب له فوهة مرنة»، لكنه بعد أن أعاد القبعة لجون أطلق زفرة طويلة، وكانت تلك عادته عند النجاة من مأزق.

في هذه الأثناء كانت الغابة حية بأصوات الفؤوس، وكان كل شيء يحتاجونه لبناء مسكن مريح لوندي موضوعًا عند قدميها.

قال أحدهم «لو أننا نعرف أي نوع من البيوت تحبه أكثر».

فصاح آخر «إنها تتحرك في نومها يا بيتر»، وهتف ثالث وهو ينظر بإجلال «فمها مفتوح، يا للروعة!».

فقال بيتر «ربما ستغني في نومها. غني يا وندي بنوع البيت الذي تفضلينه». وأخذت وندي تغني على الفور دون أن تفتح عينيها

«أتمنى لو أن لي بيتًا جميلا
أصغر بيت
له جدران حمراء طريفة صغيرة
وسطح أخضر بلون الطحالب».

(١) شاي يحضر من مرق لحم البقر يقدم للمرضى.

فغرغروا من الفرح لسماع هذا، لأن الأغصان التي جلبوها كانت لحسن الحظ دبقة بالنسغ الأحمر، والأرض كلها مفروشة بالطحالب. حين رفعوا البيت الصغير انفجروا بالغناء هم أنفسهم:

لقد بنينا الجدران الصغيرة والسطح
وصنعنا بابًا جميلا
فأخبرينا أيتها الأم وندي
ما الذي ترغبين به؟
وجاء ردها بشيء من الطمع:
أوه، أظنني أريد تاليًا
نوافذ مبهجة في كل مكان
تدخل منها الورود، كما تعلمون
ويخرج منها الأطفال[1]

وبضربة من قبضاتهم صنعوا نوافذ، وكانت الستائر أوراق شجر كبيرة صفراء، ولكن ماذا عن الورود؟

«ورود»، هتف بيتر بحزم.

تظاهروا سريعًا بزراعة أجمل الورود على الجدران.

والأطفال؟

وكي يتفادوا طلب بيتر للأطفال بادروا بالغناء ثانية:

جعلنا الورود تتسلل للخارج

---

(١) كأنها تعني النافذة التي خرجت منها مع أخويها في مغامرتهم.

أما الأطفال ففي الداخل
ولا يمكننا صنع أنفسنا كما تعلمين
لأننا صُنعنا مسبقًا.

وحين رأى پيتر أن هذه فكرة جيدة، تظاهر سريعًا بأنها فكرته. كان البيت جميلًا جدًا، وما من شك أن وندي كانت مرتاحة فيه، رغم أنهم لم يعد بوسعهم رؤيتها. مشى پيتر جيئة وذهابًا آمرًا بإضفاء اللمسات الأخيرة، ولم تغفل عينه الحادة أي شيء. وحين بدا أن العمل انتهى حتمًا، قال «ليس للباب مقرعة».

فشعر الجميع بالخجل، لكن توتلز قدم نعل حذائه وكان مقرعة رائعة.

ظنوا عندئذٍ أن العمل انتهى الآن فعلًا.

كلا، فقد قال پيتر «ليس للبيت مدخنة، علينا أن نبني مدخنة».

فقال جون بجد «إنه بحاجة لمدخنة بالتأكيد»، وهذا ما أوحى لپيتر بفكرة، إذ انتزع القبعة من رأس جون وقلبها ثم وضع القبعة على السطح. سُرّ البيت الصغير كثيرًا لأنه حظي بمدخنة ممتازة كهذه، حتى أن الدخان بدأ يتصاعد من القبعة على الفور، كأنه يقول شكرًا.

وها قد انتهى الآن حقًا وفعلًا، ولم يبق شيء لفعله سوى القرع.

حذرهم پيتر «تصرفوا بأفضل ما لديكم، لأن الانطباع الأول هام للغاية».

وكان سعيدًا لأن أحدًا لم يسأله ما معنى الانطباع الأول، فقد كانوا كلهم منشغلين بالاعتناء بمظهرهم.

قرع الباب بأدب، وكانت الغابة هادئة مثل الصغار، ولم يسمع فيها صوت سوى صوت تنكر بل، التي كانت تراقب من فوق غصن وتسخر بوقاحة.

تساءل الفتية إن كان أحد سيجيب قرعهم؟ إن كانت سيدة فكيف ستبدو؟

فتح الباب وخرجت سيدة، وكانت وندي، فخلعوا قبعاتهم جميعًا.

بدت متفاجئة فعلًا، وهذا ما تمنوا أن يروه.

«أين أنا؟»، قالت.

كان سلايتلي طبعًا أول من تحدث «سيدة وندي»، قال بسرعة، «لقد بنينا هذا البيت لأجلك».

صاح نيبز «أوه، قولي إنك سعيدة».

«يا له من بيت جميل لطيف»، قالت وندي، وكانت هذه الكلمات التي ودوا أن تقولها.

«ونحن صغارك»، هتف التوءمان.

ثم جثوا جميعًا على ركبهم، ومدوا أيديهم «كوني أمًا لنا يا سيدة وندي».

«هل أفعل؟» قال وندي مسرورة، «إن هذا ساحر للغاية طبعًا، لكن كما ترون لست سوى فتاة صغيرة، ولا خبرة لدي».

«هذا ليس مهمًا»، قال بيتر كأنما كان الشخص الوحيد من الحاضرين الذي يعرف كل شيء عن ذلك، رغم أنه كان أقلهم معرفة في حقيقة الأمر. «ما نحتاجه شخص لطيف رؤوم فحسب».

قالت وندي «يا إلهي! هذا ما أشعر به حقًا».

«إنه كذلك، إنه كذلك. لقد رأينا ذلك في الحال»، هتفوا جميعًا.

قالت «حسن، سأبذل قصارى جهدي. تعالوا إلى الداخل حالًا، أيها الأطفال المشاغبون، لا بد أن أقدامكم متعبة، وقبل أن أذهب بكم إلى فرشكم لدي وقت لأنهي قصة سندريلا».

فدخلوا، ولست أدري كيف وسعهم المكان، لكن يمكنكم أن ترتصوا بإحكام في نفرلاند. وكانت هذه أولى الليالي السعيدة التي حظيوا بها مع وندي. سرعان ما وضعتهم في فراش كبير في المنزل تحت الأشجار، لكنها نامت تلك الليلة في البيت الصغير، وظل بيتر يحرس الخارج حاملًا سيفه، لأن القراصنة يمكن سماعهم يحتفلون بعيدًا، والذئاب كانت تطوف بحثًا عن فريسة. بدا البيت الصغير مريحًا وآمنًا جدًا في العتمة بوجود النور الساطع الذي يتخلل ستائره، والمدخنة تطلق الدخان بأناقة وبيتر يقف حارسًا.

غط في النوم بعد بعض الوقت، وتسلقت عليه بعض الجنيات المشاكسات في طريق عودتهن إلى البيت من لهوهن. وفكرن بمضايقة

الفتية الآخرين الذين كانوا يعيقون درب الجنيات في الليل، لكنهن اكتفين بفرك أنف بيتر ومضين في طريقهن.

الفصل السابع
المنزل تحت الأرض

من أوائل الأمور التي قام بها بيتر في اليوم التالي أن يقيس وندي وجون ومايكل لصنع فتحات الأشجار. سخر هوك، كما تذكرون، من الفتية لظنهم أنهم بحاجة لشجرة لكل منهم، لكن هذا جهلٌ منه. إذ سيصعب عليك الدخول والخروج ما لم تكن الشجرة مناسبة لك، ولم يكن لأي اثنين من الفتية الحجم نفسه. إن لاءمت حجمك، فاسحب نفسًا من الأعلى ثم انزلق إلى الاسفل بالسرعة المناسبة تمامًا، وإن أردت الصعود فعليك أن تشهق وتزفر على التوالي، فتتلوى للأعلى. حين تصبح ماهرًا، يمكنك فعل ذلك دون التفكير به، ولا يمكن عندئذ لشيء أن يكون أكثر راحة.

لكن عليك أولًا أن تكون مناسبًا ببساطة، وسيقيسك بيتر من أجل شجرتك بعناية مثلما يقيسك الخياط من أجل خياطة بدلة. والفرق الوحيد إن الملابس صنعت لتلائمك، في حين أن عليك أن تصنع لتلائم الشجرة. يحدث ذلك بسهولة عادة، مثلما ترتدي الكثير من الثياب أو القليل منها، ولكن إن كنت ممتلئًا في أماكن

غريبة، أو أن للشجرة الوحيدة المتاحة شكل غريب، فسيفعل بيتر بعض الأمور لك، ثم تكون مناسبًا. ويتعين عليك أن تتوخى الحذر الشديد، إن حدث ذلك، لتظل ملائمًا. وهذا، ما تكتشف ويندي فرحة أنه يبقي العائلة بأكملها في حالة ممتازة.

توافق وندي ومايكل مع شجرتيهما منذ المحاولة الأولى، أما جون فاضطر للتعديل قليلًا.

بعد بضعة أيام من التدريب تمكنوا من الصعود والنزول برشاقة الدلاء في البئر. وكم غدوا يحبون منزلهم تحت الأرض كثيرًا، وبخاصة وندي. كان المنزل يتألف من غرفة واحدة كبيرة، مثل كل البيوت، وله أرضية يمكنك أن تحفرها إن أردت الذهاب لصيد السمك، وعلى هذه الأرضية نمت حبات الفطر الكبير ذات اللون الفاتن، التي أصبحت مقاعد. حاولت شجرة نقْر جاهدة أن تنمو وسط الغرفة، لكنهم كانوا يقطعون جذعها كل صباح ويسوونه بالأرض. وبحلول وقت الشاي تكون قد غدت بارتفاع قدمين، فيضعون بابًا عليها ليجعلوا منها طاولة، وما إن ينتهون من ذلك حتى يقطعوا الجذع ثانية، فيكون لديهم مساحة أكبر للعب. وكان في الغرفة موقد هائل يمكن أن يكون في أي ناحية منها تود إشعال النار فيه، علقت عليه وندي خيوطًا وصنعت نسيجًا علقت عليه الغسيل. كان السرير يسند إلى الجدار نهارًا ثم ينزل عند السادسة والنصف، فيشغل عندها نصف الغرفة وينام عليه كل الفتية ما عدا مايكل، مستلقين مثل سمك السردين في علبة الصفيح. ثمة قانون صارم يحظر التقلب ما لم يعط المرء إشارة، فينقلب الجميع دفعة

واحدة. كان لمايكل أن يتبع ذلك أيضًا، لكن وندي تود أن يكون لها طفل، وكان هو الأصغر. وتعرفون كيف تفكر النساء، لذا نقول بإيجاز أن مايكل علق في سلة.

كانت بسيطة وبدائية، وليست مختلفة عما يقبله طفل في منزل تحت الأرض في الظروف نفسها. لكن كان في الجدار فجوة لا تزيد عن حجم قفص عصفور، وتلك هي الغرفة الخاصة لتنكر بل. كان يمكن عزلها عن بقية البيت بستارة صغيرة. وكانت تنك، النيقة جدًا، تبقيها مسدلة حين ترتدي ثيابها أو تخلعها. لم يكن لامرأة، مهما كان حجمها، أن يكون لها مخدع وحجرة نوم متصلين أكثر فتنة من هذه. كانت الأريكة، كما تسميها دومًا، أريكة الملكة ماب الأصلية ولها أرجل عريضة، وكانت تبدل أغطية السرير حسب زهور الفاكهة في الموسم. أما مرآتها فكانت مرآة تحمل صورة القط ذي الحذاء التي يوجد منها ثلاث فقط لم تبع معروفة لسماسرة الجنيات، وكانت المغسلة طاولة مزخرفة ذات وجهين، وخزانة الأدراج كانت خزانة أصلية للأمير السادس، أما البسط والسجادات فقد كانت الأفضل (والأقدم) من حقبة مارجري وروبن[1]. وكانت لديها ثريا من قطع لعبة تدليونكز لجمالها، لكن تنك كانت تضيء المكان بنورها طبعًا.

---

(١) الملكة ماب: ملكة الجنيات وقد ذكرت في مسرحية روميو وجولييت لشكسبير. القط ذو الحذاء: قصة خرافية أوروبية لها نسخ عديدة، لكن الأقدم منها هي النسخة الإيطالية التي كتبها جيوفاني فرانشيسكو ستراباروﻻ في كتابه ليالي ستراباروﻻ الطريفة، وكتب النسخة الفرنسية منها شارل بيرو. الأمير السادس: من ذرية الأمير في قصة سندريلا. مارجري وروبن: قصة لماريا إدجوورث.

كانت تزدري بقية البيت، كما هو متوقع، وبدت حجرتها، رغم جمالها، مغرورة ولها مظهر من يرفع أنفه دومًا.

أفترض أن هذا كله كان مبهجًا لوندي، لأن هؤلاء الفتية المشاغبين أعطوها الكثير لتفعله. وربما مرت أسابيع بأكملها حقًا لم تر فيها ظهر الأرض إلا مساء وهي تحوك جوربًا. وأقول لكم إن الطهو أبقى أنفها إلى القدر. فقد كان الطبق الرئيس خبز الفاكهة المحمر، والبطاطا الحلوة وجوز الهند والخنزير المشوي وتفاح المامي[1]، ولفافات التاپا والموز مغمورة في شراب مقدم في يقطينات. لكن ليس بوسعك أن تعرف حقًا إن كان ذاك طعامًا حقيقيًا أو محض خيال، فذلك كله يتوقف على أهواء پيتر. كان يأكل، يأكل فعلًا، إن كان ذاك جزءًا من لعبة، لكنه لا يستطيع تناول الطعام ليشعر بالتخمة فحسب، وهو ما يفضله معظم الأطفال على أي شيء آخر، ثم يأتي الحديث عنه تاليًا في قائمة تفضيلاتهم. كان الخيال حقيقيًا جدًا بالنسبة له، إذ باستطاعتك أن تراه في وجبة متخيلة وقد غدا أكثر امتلاءً. كان ذلك مزعجًا بطبيعة الحال، لكن عليك أن تتبع تعليماته، وإن تبين له أنك ستصبح هزيلًا على شجرتك فسيجعلك تتخم.

كانت أفضل أوقات وندي تلك التي تقضيها في الحياكة والرفو بعد أن يخلدوا للنوم جميعًا. ثم، كما قالت، يكون لديها وقت لتتنفس، وتشغله بصنع أشياء جديدة لهم، وتضع رقعًا مزدوجة على مكان الركبتين، لأنهم كانوا كلهم عنيفين جدًا على ركبهم.

---

(١) فاكهة أمريكية استوائية.

حين كانت تجلس قرب سلة مملوءة بجواربهم، وكل كعب فيها مثقوب، كانت ترفع يديها وتقول «يا إلهي، يخطر لي أحيانًا أن أغبط العازبات».

كان وجهها يتألق حين تقول هذا.

هل تذكرون ذئبها الأليف؟ حسن، لقد اكتشف سريعًا أنها جاءت إلى الجزيرة وعثر عليها، وتعانقا، وصار يتبعها أينما ذهبت منذئذ.

هل فكرت كثيرًا بوالديها الحبيبين اللذين تركتهما بمرور الوقت؟ هذا سؤال صعب، إذ يصعب وصف مرور الوقت في نفرلاند، حيث يحتسب بالأقمار والشموس، وكان في الجزيرة منها أكثر مما على البر الرئيس. غير أنني أخشى أن وندي لم تقلق حقًا بشأن والدها ووالدتها، فقد كانت واثقة تمامًا أنهما سيبقيان النافذة مفتوحة لها لتحلق عائدة، ومنحها هذا راحة تامة. ما كان يزعج وقتها أن جون لا يتذكر والديهما إلا نادرًا، بوصفهما شخصين عرفهما يومًا، وأما مايكل فقد كان مستعدًا للتصديق بأنها أمه. أخافتها هذه الامور قليلًا، ولأنها اضطلعت بهمّ القيام بواجبها، حاولت أن تثبت الحياة القديمة في عقليهما قدر المستطاع بإجراء امتحانات مكتوبة لهما، مثل التي اعتادت تقديمها في المدرسة. ظن الفتية الآخرون هذا ممتعًا للغاية وألحوا على المشاركة، فصنعوا ألواحًا لأنفسهم، وجلسوا حول الطاولة يكتبون ويفكرون بجد بالأسئلة التي كتبتها على لوح آخر مررته لهم. كانت أسئلة عادية جدًا: ما لون عيني أمي؟ أأمي

أطول أم أبي؟ أشقراء أمي أم سمراء؟ أجب عن الاسئلة الثلاثة كلها إن استطعت. أ. اكتب قصة بما لا يقل عن أربعين كلمة تصف فيها كيف قضيت آخر إجازاتك، أو قارن بين شخصيتي أمي وأبي. اختر واحدًا فقط من هذين. أو ١- صف ضحكة أمي ٢- صف ضحكة أبي ٣- صف ثوب أمي للحفلة ٤- صف الوجار وساكنته.

كانت مجرد أسئلة يومية كهذه، وإن لم تستطع الإجابة عنها، يطلب منك أن تضع علامة خطأ، وكان مخيفًا حقًا عدد العلامات التي وضعها جون. كان الولد الوحيد الذي أجاب عن كل سؤال هو سلايتلي طبعًا، ولم يكن أحد يأمل إن يكون الأول أكثر منه، غير أن إجاباته كانت شديدة السخافة، وكان ترتيبه الأخير. يا له من أمر محزن!

لم يشارك بيتر، لأنه كان يكره كل الأمهات عدا وندي من جهة، ومن جهة أخرى كان الولد الوحيد على الجزيرة الذي ليس بوسعه الكتابة أو التهجئة، ولا حتى أصغر كلمة، فقد كان أعلى شأنًا من كل هذه الأمور.

بالمناسبة، كانت الأسئلة كلها مكتوبة بالزمن الماضي، ماذا كان لون عيني أمي، وهكذا. ها قد أخذت وندي تنسى أيضًا كما ترون.

كانت المغامرات تحدث كل يوم، كما سنرى، لكن في هذا الوقت ابتكر بيتر، بمساعدة وندي، لعبة جديدة سحرته للغاية، إلى أن خفت حماسه لها، وهذا، كما أخبرتكم قبلًا، ما يحدث دومًا بألعابه. كانت اللعبة في التظاهر بعدم القيام بأي مغامرة، وفعل

كل ما كان مايكل وجون يفعلانه طوال حياتهما، من الجلوس على المقعد ورمي الكرات في الهواء ودفع بعضهما بعضًا والخروج للتنزه والعودة دون قتل شيء أكبر من دب رمادي. كانت رؤية پيتر جالسًا إلى مقعد دون فعل شيء منظر عظيم، ولم يستطع أن يظهر الجدّ في أوقات كهذه، إذ كان الجلوس بهدوء أمرًا مضحكًا بالنسبة له. تبجح أنه يذهب للتنزه حفاظًا على صحته، وكانت هذه أحدث مغامراته لبضع شموس، واضطر مايكل وجون للتظاهر بالابتهاج أيضًا، وإلا فإنه سيعاملهم بقسوة.

كان كثيرًا ما يخرج وحده، وحين يعود، لا يمكنك أن تعرف على وجه التأكيد إن كان قد خاض مغامرة أم لا. إذ قد يكون نسيها تمامًا فلا يقول شيئًا عنها، ثم تخرج أنت وتعثر على الجثة، ومن ناحية ثانية قد يحكي الكثير عنها، لكنك لا تجد الجثة. كان يعود إلى البيت أحيانًا ورأسه ملفوف بضمادة، فتتودد إليه وندي وتغسله بماء فاتر، وهو يحكي قصة أخاذة، لكنها لم تكن متأكدة تمامًا كما ترى. كانت تعرف، على أية حال، أن الكثير من المغامرات حقيقية لأنها خاضتها بنفسها، وكانت مغامرات أخرى نصفَ حقيقية، لأن الأولاد الآخرين خاضوها وقالوا إنها حقيقية تمامًا. وسنحتاج لوصف المغامرات كلها كتابًا بحجم قاموس الإنجليزية -اللاتينية، اللاتينية -الإنجليزية. وقصارى ما يمكننا فعله تقديم نموذج من ساعة عادية على الجزيرة، غير أن الصعوبة تكمن في الاختيار، هل نختار المناوشة بين الهنود الحمر في وادي سلايتلي؟ كانت معركة دامية ومثيرة بخاصة لأنها تظهر إحدى ميزات پيتر، التي تتمثل في

تغييره للمواقع وسط معركة. إذ قال في الوادي، حين كان النصر متعادلًا، يرجح كفة هؤلاء أحيانًا، وكفة أولئك أحيانًا «أنا من الهنود الحمر اليوم، فممن أنت يا توتلز؟»، فيجيبه توتلز «هندي أحمر، فممن أنت يا نيبز؟» فيقول نيبز «هندي أحمر، فممن أنتما أيها التوءمان؟» وهكذا، فكانوا كلهم هنودًا حمرًا وكان لهذا أن ينهي القتال لولا أن الهنود الحمر الأصليين المفتونين بطريقة بيتر وافقوا على أن يكونوا الفتية التائهين لتلك المرة، فواصلوا كلهم ثانية، أكثر قوة من ذي قبل.

كانت نتيجة هذه المغامرة... لكننا لم نقرر بعد إن كانت هذه هي المغامرة التي نود سردها. ربما كانت أفضل مغامرة هي هجوم الهنود الحمر الليلي على المنزل تحت الأرض، حين علق الكثير منهم في فتحات الأشجار وكان لا بد من سحبهم مثل سدادات الفلين. أو لعلنا نحكي كيف أنقذ بيتر حياة تايغر ليلي في بحيرة الحوريات، وجعل منها حليفًا له.

أو لعلنا نحكي عن الكعكة التي صنعها القراصنة ليأكلها الفتية ويهلكوا، وكيف وضعوها في بقعة جذابة تلو الأخرى، لكن وندي كانت دومًا تنتزعها من أيدي الصغار، حتى فقدت نضارتها، وصارت قاسية مثل الحجر، واستخدمت قذيفة، وتعثر بها هوك في العتمة.

أو لنقل إننا نحكي عن الطيور التي كانت صديقة لبيتر، وبخاصة أنثى طير نفر التي بنت عشًا على شجرة تتدلى على البحيرة،

وكيف وقع العش في الماء وظلت ترقد على بيضها، وأمر بيتر ألا تزعج أبدًا. هذه قصة جميلة، ونهايتها تظهر مدى امتنان أنثى الطير، ولكن إن حكيناها سيكون علينا أن نحكي أيضًا مغامرة البحيرة كاملة، التي ستحكي طبعًا مغامرتين أكثر من كونها مغامرة واحدة. غير أن ثمة مغامرة قصيرة وهادئة بقدر كونها مثيرة، وهي محاولة تنكر بل بمساعدة جنيات الشارع لنقل وندي النائمة على ورقة شجر طائرة إلى البر الرئيس. انشقت الورقة لحسن الحظ واستيقظت وندي ظانة أنه وقت الاغتسال وسبحت عائدة. أو لعلنا نختار هزيمة بيتر للأسود حين رسم دائرة حولها على الأرض بسهم وحذرها من تجاوزه. ولم يجرؤ واحد منها على قبول التحدي، رغم انتظار بيتر لساعات، ومراقبة الفتية الآخرين ووندي لاهثين من فوق الأشجار.

أي من هذه المغامرات نختار؟ إن الطريقة المثلى للاختِيار هي رمي العملة.

لقد ألقيتها وفازت مغامرة البحيرة، وهذا يجعل المرء يتمنى لو فازت مغامرة الوادي أو الكعكة أو ورقة تنك. يمكنني إلقاؤها ثانية طبعًا، وأجعلها أفضل الثلاثة على أية حال، لكن لعل من العدل أن نبقى على مغامرة البحيرة.

الفصل الثامن
بحيرة الحوريات

إن أغمضت عينيك وحالفك الحظ، فلعلك ترى أحيانًا بحيرة لا شكل لها لألوان فاتحة جميلة تطوف في العتمة، ثم إن عصرت عينيك أكثر، تتخذ البحيرة شكلًا، وتصبح الألوان مشرقة جدًا حتى إن النار ستشتعل فيها إن عصرت عينيك أكثر، ولكن قبل ذلك سترى البحيرة. هذا أقرب ما يمكنكِ الوصول إليها على البر الرئيس، في لحظة واحدة مباركة، ولو كانت لديك لحظتان لاستطعت رؤية الموج وسماع غناء الحوريات.

كثيرًا ما قضى الأطفال أيامًا صيفية طويلة على هذه البحيرة، يسبحون ويعومون معظم الوقت، ويلعبون ألعاب الحوريات في الماء وهكذا. يجب ألا يجعلك ذلك تظن أن الحوريات كن لطيفات معهم. بل على العكس، إذ كان من أكثر الأمور التي ندمت عليها وندي طويلًا أنها لم تنل طوال وجودها على الجزيرة حديثًا وديًا معهن. حين مشت بهدوء على حافة البحيرة كانت تراهن بأعداد كبيرة، وبخاصة على صخرة المجزرين، حيث يحببن التشمس،

وتسريح شعورهن بطريقة كسولة ضايقتها تمامًا. أو إن تسللت على بعد ياردة منهن، كن يرينها ويغطسن، وينثرن الماء بذيولهن عامدات وليس بطريق الخطأ.

كن يعاملن كل الأولاد بالطريقة نفسها، باستثناء بيتر طبعًا، الذي يتحدث معهن على صخرة المجزرين لساعات، ويجلس على أذيالهن حين يغدون صفيقات. وقد قدم لوندي واحدًا من أمشاطهن.

كان الوقت الأجمل لرؤيتهن وقت استدارة القمر، حيث يطلقن صرخات حزينة غريبة، لكن البحيرة تكون خطرة على الفانين عندها. ولم يسبق لوندي، حتى الليلة التي نتحدث عنها، أن رأت البحيرة في ضوء القمر، ولم يكن ذلك بدافع الخوف لأن بيتر سيرافقها طبعًا، بل لأنها لديها قواعد صارمة حيال نوم الجميع عند السابعة. كانت كثيرًا ما تذهب إلى البحيرة في الأيام المشمسة بعد المطر، حين تصعد الحوريات بأعداد عجيبة للعب بفقاعاتهن. كن يلعبن بالفقاعات الكثيرة الألوان التي صنعت من ماء قوس قزح مثل الكرات، ويضربنها بمرح من واحدة لأخرى بأذيالهن، ويحاولن الحفاظ على قوس قزح فيها حتى تنفجر. كان الهدف على كل طرف من قوس قزح، ويسمح لحارسات المرمى فقط باستخدام أيديهن. وكانت مئات الحوريات يلعبن أحيانًا في البحيرة في وقت واحد، وكان ذاك مشهدًا ساحرًا للغاية.

ولكن حين حاول الأطفال الانضمام فيها إليهن، اختفين على الفور؛ فاضطروا أن يلعبوا وحدهم. ومع ذلك يمكننا إثبات

مراقبتهن خلسة للمتطفلين، ولم يترفعن عن استلهام أفكار منهم، لأن جون عرض طريقة جديدة لضرب الفقاعة بالرأس بدلًا من اليد، فتبنتها الحورية حارسة المرمى. وكان هذا أثرًا تركه جون في نفرلاند.

كما كان من الجميل أيضًا رؤية الأطفال يستريحون على صخرة لنصف ساعة بعد وجبة منتصف النهار. أصرت عليهم وندي أن يفعلوا ذلك، ولا بد أن تكون راحة حقيقية حتى لو كانت الوجبة خيالية. فاستلقوا تحت الشمس، وتلألأت أجسادهم في نورها، في حين جلست هي قربهم مبدية الجدّ.

كان هذا يومًا من هذه الأيام، حيث جلسوا كلهم على صخرة المجزرين. لم تكن الصخرة تفوق سريرهم حجمًا، لكنهم كانوا جميعًا يعرفون كيف يشغلون حيزًا صغيرًا، وكانوا يغفون، أو على الأقل يستلقون وأعينهم مغمضة، ويقَرصون بعضهم حين يظنون أن وندي لا تراقبهم، فقد كانت مشغولة جدًا بالخياطة.

طرأ تغيير على البحيرة وهي تخيط، فقد علتها ارتعادة خفيفة، واختفت الشمس ومشت الظلال على البحر، محولة الطقس إلى البرودة. لم يعد باستطاعة وندي أن تُسلِك الخيط بالإبرة، وحين رفعت نظرها بدت البحيرة، التي كانت حتى الآن مكانًا ضاحكًا، مخيفة ومروعة.

كانت تعلم أن الليل لم يهبط بعد، لكن شيئًا أسود بسواد الليل قد حل. كلا، كان الأمر أسوأ من ذلك، فلم يحل بل أرسل رعشة في البحر ليقول إنه قادم، فما هو؟

عندئذ احتشدت كل القصص التي قيلت لها عن صخرة المجزرين، التي سميت كذلك لأن القباطنة الأشرار يضعون البحارة عليها ويتركونهم هناك للغرق. فيغرقون حين تعلو الأمواج لأنها تغوص عندئذ.

كان عليها أن توقظ الأطفال على الفور حتمًا، ليس بسبب المجهول الذي كان يقترب منهم فحسب، بل لأنه لم يعد من المفيد النوم على الصخرة وقد غدت باردة. لكنها كانت أمًا صغيرة ولم تعرف هذا، بل ظنت أن عليها الالتزام بقاعدة نصف الساعة بعد وجبة منتصف النهار. ورغم أن الخوف استولى عليها، وأنها تاقت لسماع أصوات ذكورية فإنها لم توقظ الأطفال. ولم توقظهم حتى حين سمعت صوت مجاديف مكتوم، وحين قفز قلبها من صدرها، بل وقفت قربهم لتجعلهم ينهون غفوتهم، أليست تلك شجاعة من وندي؟

كان جيدًا للأولاد حينئذ أن كان بينهم واحد بوسعه تنشق الخطر حتى في نومه. نهض بيتر منتصبًا، يقظًا تمامًا على الفور كما الكلب، وأيقظ البقية بصيحة تحذير واحدة.

وقف ساكنًا وإحدى يديه على أذنه.

«القراصنة!» صاح، واقترب منه الآخرون وتراقصت على وجهه ابتسامة غريبة، رأتها وندي وارتعدت. لم يكن أحد يجرؤ على محادثته حين تعلو وجهه هذه الابتسامة، وكل ما بوسعهم فعله الوقوف مستعدين للطاعة، وجاءهم الأمر دقيقًا وواضحًا.

«اغطسوا!».

لمغت أرجلهم، ثم سرعان ما غدت البحيرة مهجورة. وظلت صخرة المجزرين وحيدة في المياه المخيفة، كأنها هي نفسها مجزرة.

اقترب القارب أكثر. كان مركبًا شراعيًا للقراصنة وفيه ثلاثة أشخاص، سمي وستاركي والثالث أسير، لم يكن إلا تايغر ليلي. كانت يداها وكاحلاها مربوطة، وعرفت ما سيكون مصيرها، فقد كانت ستترك على الصخرة لتهلك، وهي نهاية بالنسبة لعرقها أكثر رهبة من الموت بالنار أو التعذيب. ألم يذكر في كتاب القبيلة أنه لا مخرج من الماء إلى أرض الصيد السعيدة؟ ورغم ذلك كان وجهها هادئًا، فهي ابنة زعيم، ولا بد لها أن تموت مثل ابنة زعيم، وهذا يكفي.

لقد أمسكوا بها تركب سفينة القراصنة وهي تحمل سكينًا في فمها. لم يكن في السفينة حراس، فقد كان هوك يتبجح أن ريح اسمه تحرس السفينة على بعد ميل. وسيساعدها مصيرها الآن في حمايتها أيضًا، فصرخة نواح واحدة ستدور في الأرجاء بتلك الرياح بحلول الليل.

لم يرَ القرصانان في العتمة التي جلباها معهما الصخرة حتى اصطدما بها.

«أبحر باتجاه الريح أيها الأخرق»، صاح صوت إيرلندي كان صوت سمي، «ها هي الصخرة، وما سنفعله الآن أن نلقي بالهندية الحمراء عليها ونتركها هناك لتغرق».

كانت لحظة عمل شاقة لوضع الفتاة الجميلة على الصخرة، وقد كانت شديدة الاعتداد بنفسها ولم تبد مقاومة بلا جدوى.

قرب الصخرة تمامًا، ولكن بعيدًا عن مرمى النظر، كان رأسان يهتزان إلى الأعلى والأسفل، رأس بيتر ورأس وندي. كانت وندي تبكي، لأنها أول مأساة تشهدها، أما بيتر فقد رأى الكثير من الفواجع، لكنه نسيها كلها. كان يشعر بالأسى من أجل تايغر ليلي أقل مما تشعر به وندي، غير أن ما أغضبه أنهما كانا اثنين ضد واحد، وعزم على إنقاذها. كانت الطريقة السهلة لذلك هي الانتظار حتى رحيل القرصانين، لكنه لم يكن ليختر الطريقة السهلة يومًا.

لم يكن بوسعه فعل شيء، فأخذ يقلد صوت القائد هوك.

«أنتم هناك أيها الأخرقان»، صاح بتقليد مدهش.

«إنه القائد»، قال القرصانان محدقين ببعضهما بعضًا بدهشة.

«لا بد أنه كان يسبح خلفنا»، قال ستاركي حين أخذا يبحثان عنه بلا جدوى.

«نحن نضع الهندية الحمراء على الصخرة»، هتف سمي.

«أطلقا سراحها»، جاءهما الرد الغريب.

«نطلق سراحها؟!».

«أجل، اقطعا وثاقها ودعاها تذهب».

«لكن أيها القائد..».

«حالًا، افعلا ما سمعتما، وألا غرست خطافي في جسديكما»، هتف بيتر.

«هذا غريب»، قال سمي لاهثًا.

«من الأفضل لنا أن نفعل ما أمر القائد»، قال ستاركي بقلق.

«بلى بلى»، قال سمي وحلّ وثاق تايغر ليلي. فانزلقت من فورها إلى الماء مثل الإنقليس بين ساقي ستاركي.

كانت وندي جذلة لذكاء بيتر، لكنها عرفت أنه سيكون جذلًا أيضًا وسيهتف مبتهجًا فيفضح نفسه، لذا مدت يدها فورًا لتغطي فمه. لكنه ظل ثابتًا في مكانه، لأن «أيها المركب» رنت عبر البحيرة بصوت هوك، ولم يكن بيتر هو مَن تحدث هذه المرة.

كان بيتر سيهتف، غير أن وجهه تغضن ليصفر في دهشة بدلًا من ذلك.

جاءت الصرخة ثانية، «أيها المركب!».

ففهمت وندي، إذ كان هوك الحقيقي في الماء أيضًا.

كان يسبح إلى المركب، ورفع رجاله مصباحًا لإرشاده ووصل إليهما سريعًا. في ضوء القنديل رأت وندي خطافه يمسك جانب المركب، ورأت وجهه الشرير الداكن حين ارتفع يقطر من الماء، وودت، وهي ترتعش، لو تسبح بعيدًا، لكن بيتر لم يكن ليتزحزح. كان يخلط بين الحياة وبين الاعتداد الشديد بالذات. «ألستُ أعجوبة، أوه، بلى أنا أعجوبة!» همس لها ورغم أنها رأت ذلك أيضًا

فإنها كانت سعيدة أن أحدًا لم يسمعه سواها، خوفًا على سمعته.

طلب منها أن تصغي.

كان الفضول يقتل القرصانين ليعرفا ما الذي جاء بقائدهما، لكنه جلس ورأسه على خطافه في جلسة حزن جلي.

«هل كل شيء على ما يرام أيها القائد؟»، سألاه بخنوع، لكنه أجاب بنواح عميق.

«إنه يتنهد»، قال سمي.

«إنه يتنهد ثانية»، قال ستاركي.

«وها هو يتنهد للمرة الثالثة»، قال سمي.

«ما الأمر أيها القائد؟».

ثم تحدث بانفعال أخيرًا.

فصاح «لقد انتهت اللعبة، لقد عثر أولئك الفتية على أم».

ازدردت وندي ريقها بفخر، رغم ذعرها.

«يا له من يوم مشؤوم» صاح ستاركي.

«وما الأم؟»، قال سمي الجاهل.

دهشت وندي كثيرًا فقالت «ألا يعرف؟!»، وتبادر في ذهنها بعد هذا أن لو كان للمرء أن يحتفظ بقرصان أليف، لكان سمي قرصانها.

جذبها بيتر تحت الماء، لأن هوك أخذ يصرخ «ماذا كان ذاك؟».

«لم أسمع شيئًا»، قال ستاركي رافعًا القنديل فوق الماء، وحين نظر القراصنة رأوا منظرًا غريبًا. كان العش الذي أخبرتكم عنه، يطفو على سطح البحيرة، وأنثى طائر نقر تجلس فيه.

قال هوك مجيبًا عن سؤال سمي «انظر، هذه أم. يا له من درس! قد يسقط العش في الماء، ولكن أتهجر الأم بيضها؟ كلا».

كان في صوته انكسار، لأنه تذكر للحظة الأيام البريئة حين... لكنه نفض ضعفه بعيدًا بخطافه.

حدق سمي، شديد التأثر، بأنثى الطير حين مر بهم العش، لكن ستاركي الأكثر شكًا قال «إن كانت هي أمًا، فلعلها تتجول هنا لمساعدة بيتر».

جفل هوك وقال «أجل، هذا هو الخوف الذي يطاردني».

لكنه استيقظ من هذا الاغتمام بفعل صوت سمي المتحمس.

قال سمي «ألا يمكننا أيها القائد أن نخطف أم هؤلاء الفتية ونجعلها أمًا لنا؟».

هتف هوك قائلًا «إنها خطة فاخرة»، واتخذت على الفور شكلًا عمليًا في عقله العظيم، «سنقبض على الفتية ونحملهم إلى السفينة، وسنجعلهم يمشون على اللاطة، وتصبح وندي أمنا».

ونسيت وندي نفسها مرة أخرى

«محال !»، صاحت وبقبقت.

«ماذا كان ذاك؟».

لكنهم لم يروا شيئًا، فظنوا أنها لم تكن سوى ورقة شجر في الريح «هل توافقان يا رفيقيّ؟»، سأل هوك.

«هذه يدي عهدًا»، قال كلاهما.

«وهذا خطافي، لنقسم». فأقسموا جميعًا، وكانوا عندئذ على الصخرة وتذكر هوك تايغر ليلي فجأة.

«أين الهندية الحمراء؟»، سأل بحدة.

كان له مزاج فكه أحيانًا، فظنا أن هذا واحدًا من تلك الأوقات.

فأجاب سمي باطمئنان «كل شيء على ما يرام أيها القائد، لقد تركناها تذهب».

صاح هوك: «تركتماها تذهب!».

«كانت تلك أوامرك»، تلعثم عريف الملاحين.

«لقد ناديت من الماء وأمرتنا بأن نتركها»، قال ستاركي.

«لتحل عليّ لعنة الرب»، زمجر هوك «أي مكيدة تحدث هنا؟» واسود وجهه غضبًا، لكنه رأى أنهما صادقان بكلامهما، ودهش فقال وهو يرتجف قليلًا «أيها الرجال، لم أعط أي أمر بهذا».

قال سمي «هذا غريب»، وتململوا كلهم قلقًا. رفع هوك صوته دون أن يكون فيه رعشة.

«أيتها الروح التي تحلق فوق البحيرة الليلة، هل تسمعيني؟»، هتف.

كان على بيتر أن يلزم الصمت طبعًا، غير أنه لم يفعل قطعًا. بل أجاب صوت هوك في الحال: «يا للهول! إنني أسمعك».

لم يشحب هوك في تلك اللحظة الخارقة، ولم يشحب منخاراه، غير أن سمي وستاركي تشبثا ببعضهما رعبًا.

«من أنت أيها الغريب، تحدث؟»، قال هوك آمرًا.

«أنا جيمس هوك، قبطان السفينة بيلي روجر»، أجابه الصوت.

فصرخ هوك بصوت أجش «ليس صحيحًا، ليس صحيحًا».

«لتحلّ عليّ اللعنة!»، أجاب الصوت سريعًا، «قل هذا ثانية وسأرميك بمرساة».

جرب هوك طريقة أكثر تملقًا «إن كنت أنت هوك»، قال بتذلل، «فتعال أخبرني من أكون أنا؟».

«سمكة قد»، أجاب الصوت «لست إلا سمكة قُد».

«سمكة قد!»، ردد هوك بخرق، وعندئذ عندئذ فقط انكسر كبرياؤه، ورأى رجليه يبتعدان عنه.

«هل كانت تقودنا سمكة قُد طوال هذا الوقت؟ إن هذا يحط من شأننا»، غمغما.

كانا رجلاه ينبحان عليه، لكنه لم يبال بهما، رغم أنه غدا شخصًا كئيبًا. في تلك الحادثة المريعة لم يكن بحاجة لإيمانهما به، بل لإيمانه بنفسه، إذ شعر أن اعتداده بذاته ينسل منه فهمس له بصوت أجش «لا تهجرني يا رفيق».

كان في طبعه الشرير لمسة أنثوية، كما في كل القراصنة، وكانت تمنحه حدسًا. فجرب فجأة لعبة التخمين.

«هل لك صوت آخر يا هوك؟»، نادى.

ولم يستطع بيتر مقاومة اللعبة، فأجاب بطيش بصوته هو «لدي».

«واسم آخر؟».

«بلى بلى».

«أمن الخضار هو؟»، سأل هوك.

«كلا».

«أمن المعادن؟».

«كلا».

«ماذا عن الحيوانات؟».

«أجل».

«أرجلٌ أنت؟».

«كلا!»، وجلجل هذا الجواب موبخًا.

«أأنت ولد؟».

«أجل».

«ولد عادي؟».

«كلا!».

«ولد عجيب؟».

حزنت وندي حين كان الجواب الذي جلجل هذه المرة هو «أجل».

«هل أنت في إنجلترا؟».

«كلا».

«هل أنت هنا؟».

«أجل».

كان هوك محتارًا للغاية «اسألَاه بعض الأسئلة»، قال للآخرين وهو يمسح حاجبه الرطب.

فكر سمي ثم قال بأسف «لا يمكنني التفكير بشيء».

زعق پيتر «لا يمكنكم التخمين، لا يمكنكم التخمين. هل تستسلمون؟».

كان يمضي باللعبة بعيدًا بسبب غروره، ووجد الأشرار الفرصة سانحة.

«أجل، أجل»، قالوا بلهفة.

«حسن إذًا. أنا پيتر پان»، قال.

«پان!».

استعاد هوك ذاته في لحظة، وصار ستاركي وسمي تابعيه المخلصين.

صرخ هوك «لقد وجدناه الآن، إلى الماء، توليا أمر المركب يا سمي وستاركي واجلباه حيًا أو ميتًا».

فقفز وهو يتحدث وفي الوقت نفسه جاءه صوت بيتر المرح.

«هل أنتم مستعدون يا أولاد؟».

«أجل، أجل»، من أماكن متعددة في البحيرة.

«فاهجموا على القراصنة إذًا».

كانت المعركة قصيرة وحادة، وكان أول من سفك الدم هو جون، الذي تسلق المركب برشاقة وأمسك بستاركي. دار صراع عنيف انتزع فيه القطلس من قبضة القرصان، الذي ترنح على ظهر المركب وقفز جون خلفه، وانجرف المركب بعيدًا. ظهر رأس من الماء هنا وهناك، وظهر وميض الفولاذ تتبعه صرخة أو شهقة. كان البعض يضرب على جانبه من الاضطراب، وتمكن مبرام سمي من طعن توتلز عند الضلع الرابع لكنه طُعن على يد كيرلي. بعيدًا عن الصخرة كان ستاركي يضغط على سلايتلي والتوءمين بشدة.

أين كان بيتر كل هذا الوقت؟ كان يبحث عن لعبة أكبر.

كان الآخرون كلهم فتية شجعان، ولا يمكن لومهم على تخوفهم من قائد القراصنة، فمخلبه المعدني قد صنع دائرة من الماء الساكن حوله، فهربوا منها مثل سمك مذعور.

غير أن واحدًا لم يخشه، وواحدًا كان يتأهب لدخول الدائرة.

إنه لأمر غريب أنهما لم يلتقيا في الماء، فقد صعد هوك إلى الصخرة ليلتقط أنفاسه، وجلس بيتر على جانبها المقابل في اللحظة نفسها، كانت الصخرة زلقة مثل الكرة، وكان عليهما أن يزحفا بدلًا من التسلق. لم يعرف أي منهما بقدوم الآخر، بل كان كل منهما يتحسس بيده بحثًا عن ممسك فأمسكا بذراعي بعضهما ورفعا رأسيهما في دهشة، وكاد وجهاهما يتلامسان، فالتقيا.

اعترف بعض من أعظم الأبطال أنهم يستشعرون الخطر قبل الشروع بأي عمل، ولو كان هذا ما حدث لبيتر تلك اللحظة لكنت قلته. في النهاية كان هوك هو الوحيد الذي يخشاه سي كوك. لكن بيتر لم يخف، بل انتابه شعور واحد فحسب وهو السرور، وصر بأسنانه الجميلة سعادة. سريعًا مثل فكرة، انتزع سكينًا من حزام هوك وكان على وشك أن يقضي عليه حين رأى أنه كان يقف على الصخرة أعلى من خصمه. لم يكن ذاك قتالًا عادلًا، فمد يده للقرصان ليساعده على الصعود.

وعندها عضه هوك.

لم يكن الألم ما أفقد بيتر صوابه بل الخديعة، التي جعلته عاجزًا تمامًا فاكتفى بالنظر خائفًا. كل طفل يتأثر هكذا حين يعامل بإجحاف لأول مرة. وكل ما فكر به بيتر أن له الحق أن تعامله بالعدل حين يلتقيك. كما أنه سيحبك من جديد بعد أن تظلمه، لكنه لن يكون الصبي نفسه أبدًا، فلا أحد يتجاوز الظلم الأول أبدًا، لا أحد عدا

بيتر. فقد كان يتعرض له دوما لكنه ينساه دومًا، وأظن هذا هو الفرق الحقيقي بينه وبين البقية.

لذا حين تعرض له في هذه المرة، كان كأنما يتعرض له أول مرة، واكتفى بالنظر عاجزًا، وخدشته اليد المعدنية مرتين.

بعد ذلك ببضع دقائق، رأى الفتية هوك في الماء يسبح بعنف للحاق بالسفينة، ولا جذل على وجهه الشرير، بل وجه شاحب فحسب، لأن التمساح كان في سعي حثيث وراءه. كان الفتية سيسبحون إلى جانبه هاتفين في الأوقات العادية، لكنهم شعروا بالقلق لأنهم فقدوا كلًا من بيتر ووندي، وأخذوا يفتشون البحيرة بحثًا عنهما هاتفين باسميهما. عثروا على المركب الشراعي واستقلوه للعودة إلى البيت وهم يصرخون «بيتر، وندي» كلما تقدموا، لكنهم لم يتلقوا جوابًا سوى ضحكات ساخرة من الحوريات. «لا بد أنهما يسبحان عائدين أو يطيران»، قال الفتية. لم يكونوا قلقين لانهم يؤمنون ببيتر. فتضاحكوا بصبيانية، لأنهم سيتأخرون عن موعد النوم، وكل ذلك خطأ الأم وندي!

حين هدأت أصواتهم، خيّم صمت بارد على البحيرة. ثم علت صرخة واهنة:

«النجدة، النجدة!».

ثمة شكلان صغيران يطوفان حول الصخرة، وقد أغمي على الفتاة واستلقت على ذراع الصبي. جذبها بيتر بمحاولة أخيرة أعلى الصخرة ثم اضطجع قربها، وحتى وهو فاقد الوعي رأى المياه

تعلو، وعرف أنهما سيغرقان سريعًا لكنه لم يستطع فعل المزيد. حين كانا مستلقيين جنبًا إلى جنب، جذبت حورية وندي من قدمها، وأخذت تجذبها إلى الماء بهدوء، استيقظ پيتر قافزًا، وقد شعر بها تنزلق من جانبه. وسحبها للخلف في الوقت المناسب، لكن عليه أن يقول لها الحقيقة.

«نحن على الصخرة يا وندي»، قال، «لكنها تصغر وسيغمرها الماء قريبًا».

لم تفهم ما كان يحدث حتى بعد قوله.

قالت بسعادة: «علينا الذهاب».

فأجاب بوهن: «أجل».

«هل سنسبح أو نطير يا پيتر؟».

كان عليه أن يخبرها.

«هل تظنين أن بوسعك السباحة أو الطيران بعيدًا بُعد الجزيرة دون مساعدتي يا وندي؟».

كان عليها الاعتراف أنها متعبة جدًا.

فبكى.

«ما الأمر؟»، سألت قلقة عليه.

«لا يمكنني مساعدتك يا وندي، لقد جرحني هوك ولا يمكنني السباحة ولا الطيران».

«هل تعني أن كلينا سنغرق؟».

«انظري كم يرتفع الماء».

وضعا أيديهما على عيونهما لكيلا يريا المنظر، إذ ظنا أنهما سيموتان قريبًا، وحين جلسا هكذا مسّ بيتر شيءٌ خفيفٌ بخفة قبلة، كأنه يقول بتذلل: «هل أخدمك بشيء؟».

كان ذيل طائرة ورقية صنعها مايكل قبل بضعة أيام. لقد حررت نفسها من يده وطارت بعيدًا.

«إنها طائرة مايكل الورقية»، قال بيتر بلا اهتمام، لكنه أمسك بالذيل بعدها وأخذ يجذب الطائرة نحوه.

«لقد رفعت مايكل عن الأرض، فلم لا ترفعك أنت؟»، صاح.

«ترفعنا كلينا!».

«لا يمكنها حمل اثنين، لقد جرب ذلك مايكل وكيرلي».

«لنجرِ قرعة»، قال وندي بشجاعة.

«أفعل ذلك معك وأنت سيدة؟ مطلقًا». كان قد عقد الذيل حولها وتشبثت به ورفضت الذهاب دونه، لكنه دفعها بعيدًا عن الصخرة قائلًا «إلى اللقاء يا وندي»، وحملتها في بضع دقائق بعيدًا عن نظره. ظل بيتر وحيدًا في البحيرة.

صارت الصخرة صغيرة جدًا وأوشكت على الغرق. تسللت أشعة شاحبة من الضوء على الماء وسمع الصوت الأكثر حزنًا وعذوبة في العالم، إنه صوت الحوريات يناجين القمر.

لم يكن بيتر مثل الفتية الآخرين حقًا، لكنه كان خائفًا في النهاية. سرت في أوصاله رعشة مثل رجفة تمر فوق البحر. لكن البحر تعلوه رعشة تتلوها أخرى حتى يكون المئات منها، أما بيتر فكان واحدًا فقط. كان يجلس منتصبًا على الصخرة ثانية، وابتسامة ترتسم على وجهه وطبل يقرع داخله، كان يقول «إن الموت سيكون مغامرة عظيمة جدًا».

الفصل التاسع
أنثى طائر نقر

كان آخر الأصوات التي سمعها بيتر قبل أن يكون وحيدًا تمامًا، أصوات الحوريات يعدن إلى مخادعهن واحدة تلو الأخرى تحت البحر. كان بعيدًا جدًا ليسمع صوت إغلاق أبوابهن، لكن لكل باب في الكهوف المرجانية، حيث يعشن، جرس يرن حين يفتح أو يغلق (كما في المنازل الأنيقة في البر الرئيس)، وسمع صوت الأجراس.

ارتفعت المياه بثبات حتى صارت تقضم قدميه، وليمرر الوقت حتى تقضم قضمتها الأخيرة راقب الشيء الوحيد الذي يتحرك في البحيرة. ظنها قطعة ورق عائمة، وربما كانت قطعة من الطائرة الورقية، فتساءل بخمول كم سيستغرق منها الوقت حتى تنجرف نحو الشاطئ.

ثم خطر له أنه شيء غريب، وأنه كان في البحيرة لهدف محدد حتمًا. فقد كان يصارع التيار وينتصر أحيانًا. كان بيتر، الذي يتعاطف دومًا مع الجانب الأضعف، يصفق حين يفوز. لقد كانت قطعة ورق شجاعة. لم تكن مجرد قطعة ورق، بل كانت أنثى طائر

نقر التي تحاول جاهدة الوصول إلى بيتر بعشها. واستطاعت إلى حد ما إدارة سفينتها الغريبة، بتحريك جناحيها بطريقة تعلمتها منذ أن سقط العش في الماء. لكن بيتر أدرك أنها كانت منهكة جدًا. لقد جاءت لإنقاذه وإعطائه عشها رغم وجود البيض فيه. أتعجب قليلًا من أمر أنثى الطائر، فرغم أن بيتر كان لطيفاً معها أحيانًا، فقد عذبها أحيانًا أخرى. أستطيع القول فقط إنها رقت له، مثل السيدة دارلنغ والبقية، لأنه ما زال محتفظًا بأسنانه اللبنية.

قالت له ما جاء بها، وهتف يسألها عما تفعله هنا، لكن لا أحد منهما فهم لغة الآخر طبعًا. يتحدث الناس في القصص الخيالية إلى الطيور بحرية، وأتمنى لو أمكنني للحظة التظاهر بأن هذه قصة من تلك القصص، وأقول إن بيتر رد بذكاء على أنثى طائر نقر. لكني أؤثر قول الحقيقة، وأنا أود ذكر ما حدث فعلًا. حسن لم يكونا عاجزين عن فهم بعضهما فحسب، بل نسيا أخلاقهما أيضًا.

«أريدك أن تصعد إلى العش»، قالت أنثى الطير متحدثة ببطء ووضوح قدر المستطاع، «ثم يمكنك أن تأخذه نحو الشاطئ. لكني متعبة جدًا وأعجز عن تقريبه منك، لذا عليك أن تسبح إليه».

«ما الذي تبطبطين به؟ لماذا لا تتركين العش يطفو كالمعتاد؟»، رد بيتر.

«أريدك...»، قالت أنثى الطير وكررت الكلام السابق كله.

ثم كرر بيتر ببطء ووضوح: «ما الذي تبطبطينه؟»، وهكذا استمر الأمر.

غضبت أنثى طائر نقر، فصبر هذه الطيور سريع النفاد.

فصرخت به: «أيها الثرثار الغبي، لم لا تفعل كما أقول لك؟».

شعر پيتر أنها كانت تشتمه، وأجاب بحرارة وجرأة: «وكذلك أنت!».

ثم قال كلاهما، على نحو غريب، التعليق نفسه:

«اخرس!».

«اخرسي!».

ومع ذلك كانت أنثى الطير مصرة على إنقاذه إن استطاعت، واستطاعت بمحاولة أخيرة جبارة أن تدفع العش قرب الصخرة، ثم طارت متخلية عن بيضها، كأنها تود شرح مقصدها.

فهم أخيرًا وتشبث بالعش ولوح لها شاكرًا، وهي تحلق فوقه. لم تبق هناك في السماء على أية حال لتتلقى شكره، ولم يكن ذلك لتراقبه وهو يصعد العش، بل لترى ما سيفعله ببيضها.

كان في العش بيضتان بيضاوان كبيرتان فرفعهما پيتر وفكر، فغطت أنثى الطير وجهها بجناحيها لئلا ترى مصير بيضها، لكنها لم تستطع منع نفسها من استراق النظر من بين الريش.

نسيت إن كنت أخبرتكم أن على الصخرة هراوة، وضعها بعض القراصنة منذ زمن بعيد ليعلّموا به موضع كنز دفين. عثر الفتية على الكومة البراقة، واعتادوا، حين يكونون في مزاج مشاكس، اعتادوا رمي شلالات من القطع النقدية والجواهر واللآلئ والعملات

الفضية إلى النوارس، التي تهبط إليها لتأكلها، ثم تطير بعيدًا غاضبة من الخدعة الخسيسة التي انطلت عليها. كانت الهراوة ما تزال في مكانها، وقد علق ستاركي عليها قبعته، المصنوعة من القماش المشمّع المسيك ولها حافة عريضة. وضع بيتر البيض في هذه القبعة وأطلقها في البحيرة فطافت بأمان.

رأت أنثى طير نفر حالًا ما كان يفعله، وصرخت من الإعجاب به، وصاح بيتر بدوره متفقًا معها. ثم صعد إلى العش ونصب الهرواة لتكون صارية وعلق قميصه ليكون شراعًا. هبطت أنثى الطير إلى القبعة في اللحظة نفسها، وجلست مرة أخرى على بيضها بدفء. وأبحرت به باتجاه، وكان بيتر محمولًا بالاتجاه الآخر، وكلاهما يشعر بالبهجة.

حين وصل بيتر اليابسة أرسى مركبه الصغير في مكان يمكن لأنثى الطير العثور عليه بسهولة، لكن القبعة كانت ناجعة جدًا حتى أنها هجرت العش. وطافت بالقبعة حتى تمزقت مزقًا، وكثيرًا ما جاء ستاركي إلى شاطئ البحيرة وراقب أنثى الطير، بكثير من المشاعر المريرة، تجلس على قبعته. ولأننا لن نراها ثانية، ربما يجدر بنا القول هنا إن كل طيور نفر تبني الآن أعشاشها على هذا الطراز، بحافة عريضة تتشمس عليها الصغار.

كانت الابتهاجات عظيمة حين وصل بيتر البيت تحت الأرض في وقت وصول وندي تقريبًا، التي كانت تحملها الطائرة الورقية هنا وهناك. كان لدى كل ولد مغامرة يرويها، غير أن أكبر المغامرات

كانت تأخرهم على موعد النوم ببضع ساعات. فقد أسعدهم ذلك كثيرًا حتى أنهم راوغوا ليظلوا مستيقظين وقتًا أطول، كأن يطلبوا ضمادات. لكن وندي، رغم امتنانها لعودتهم إلى البيت جميعًا آمنين ومعافين، كانت مذعورة لتأخر الوقت. «إلى النوم، إلى النوم،» قالت بلهجة يجب أن تطاع. ومع ذلك كانت في اليوم التالي شديدة اللطف وقدمت الضمادات للكل، ولعبوا وهم يعرجون ويلفون الأربطة على أذرعهم حتى حان موعد النوم.

الفصل العاشر
العائلة السعيدة

كانت إحدى نتائج معركة البحيرة الهامة أنها جعلت الهنود الحمر أصدقاء لهم. فقد أنقذ بيتر تايغر ليلي من المصير المشؤوم، ولم يعد ثمة شيء لا يمكنها هي ومحاربوها فعله له. كانوا يقضون الليل بطوله جالسين في الأعلى، يحرسون المنزل تحت الأرض وينتظرون هجوم القراصنة الكبير الذي لم يعد بالإمكان تأجيله كما تبين. كانوا يتجولون في الأنحاء حتى في النهار، وهم يدخنون قُصيباتهم، ويبدون كأنهم يودون تناول طعام شهي.

سموا بيتر الأب الأبيض الكبير، ساجدين أمامه، وقد أحب هو هذا للغاية، لكن ذلك لم يكن في صالحه حقًا.

كان يقول لهم آمرًا وهم يتذللون أمامه: «الأب الابيض الكبير سعيدٌ لرؤية محاربي البيكانيني يحمون كوخه من القراصنة».

«أنا تايغر ليلي»، قالت تلك المخلوقة الجميلة، «أنقذني بيتر بان، وأنا صديقته المخلصة، ولن أسمح للقراصنة بإيذائه».

كانت شديدة الجمال لتتذلل على هذا النحو، لكن بيتر ظن هذا حقه، فكان يرد بتشامخ «هذا جيد، يقول بيتر بان».

وإن قال «بيتر بان يقول»، فهو يعني دائمًا أن عليهم أن يصمتوا، وقبلوا ذلك بخنوع من تلك الروح، غير أنهم لم يكنوا احترامًا شديدًا لبقية الأولاد فقد اعتبروهم محاربين عاديين. وكانوا يقولون لهم «كيف الحال؟» وأمورًا من هذا القبيل، وشعر الفتية بالضيق لأن بيتر لا يرى في ذلك بأسًا.

تعاطفت وندي معهم قليلًا في السر، لكنها كانت ربة بيت مخلصة للغاية ولا تقبل أي شكاوى ضد الأب «الأب يعرف أكثر»، كما تقول دومًا، أيًا كان رأيها الخاص. وكان رأيها أنه لا يجدر بالهنود الحمر أن يدعوها بالهندية الحمراء.

وها قد وصلنا إلى الأمسية التي ستعرف بينهم باسم «ليلة الليالي»، لما فيها من مغامرات وعواقبها. كان النهار، كأنما يستجمع قواه بهدوء، خلوًا من الأحداث، وكان الهنود الحمر ملتفين بأرديتهم جالسين على أعمدتهم في الأعلى، في حين كان الأطفال في الأسفل يتناولون وجبتهم المسائية، كلهم ما عدا بيتر الذي خرج ليعرف الوقت، وتكون معرفة الوقت على الجزيرة بالعثور على التمساح، ثم البقاء بقربه حتى تدق الساعة.

صادف أن تكون هذه الوجبة شايًا خياليًا، وجلسوا حول اللوح، مسرفين في نهمهم، وكانت ضوضاء حديثهم واتهاماتهم تجلب الصمم مثلما قالت وندي. الحقيقة أنها لم تعارض الضجيج،

لكنها لم تكن لتسمح لهم بجذب الأشياء، ومن ثم التذرع بقولهم إن توتلز قد دفع مرافقهم. كان لديهم قانون ثابت يقضي بعدم رد الضربة أثناء تناول الطعام، بل تحويل أمر النزاع إلى وندي برفع الذراع الأيمن بأدب والقول «أشتكي من كذا وكذا»، لكن ما يحدث عادة أنهم ينسون فعل هذا، أو أنهم يفعلونه أكثر مما ينبغي.

«صمتًا»، صاحت وندي حين أخبرتهم للمرة العشرين أنهم لا يمكنهم الحديث جميعًا معًا «هل وعاؤك فارغ يا عزيزي سلايتلي؟».

«ليس فارغًا تمامًا يا ماما»، قال سلايتلي بعد أن نظر في كوبه المتخيل.

فتدخل نيبز «إنه لم يمسّ حليبه بعد».

كانت هذه وشاية، وانتهز سلايتلي الفرصة.

«أشتكي من نيبز»، صاح على الفور.

رفع جون مع ذلك يده أولًا.

«ماذا تريد يا جون؟».

«هل يمكنني الجلوس على كرسي بيتر، ما دام ليس موجودًا؟».

«تجلس على كرسي الأب يا جون!»، قالت وندي موبخة، «كلا قطعًا».

«إنه ليس أبونا حقًا، إنه لا يعرف حتى ما يفعل الأب حتى

شرحت له»، أجاب جون.

كان هذا تذمرًا، «نحن نشتكي من جون»، صاح التوءمان.

رفع توتلز يده، وقد كان أكثرهم تواضعًا، بل كان المتواضع الوحيد بينهم في الحقيقة، وكانت وندي لطيفة معه بشكل خاص.

قال توتلز بحياء «لا أظن أن باستطاعتي أن أكون أبًا».

«كلا يا توتلز».

لتوتلز طريقة سخيفة في مواصلة الحديث حين يبدأه، وهو ما يحدث قليلًا جدًا.

قال بقوة «ولأنني لا أستطيع أن أكون أبًا، فلا أظنك يا مايكل تسمح لي أن أكون طفلًا».

فرد مايكل الذي كان في سلته، «كلا، لن أفعل».

«وما دمت لا أستطيع أن أكون طفلًا»، قال توتلز وهو يغدو جديًا أكثر فأكثر «هل تظنان أن بوسعي أن أكون توءمًا؟».

«كلا طبعًا»، رد التوءمان، «من الصعب جدًا أن تكون توءمًا».

فقال توتلز «ولأن ليس بوسعي أن أكون شيئًا ذا بال، فهل يود أي منكم أن يراني أقوم بخدعة؟».

«كلا»، رد الجميع.

ثم توقف أخيرًا وقال «ليس لدي أمل حقًا».

ثم اندلعت الوشايات البغيضة ثانية.

«سلايتلي يسعل على المائدة».

«بدأ التوءمان بتناول تفاح المامي».

«كيرلي أخذ كلًا من لفافات التابا والبطاطا الحلوة».

«نيبز يتحدث بفم مملوء بالطعام».

«أشتكي من التوءمين».

«أشتكي من كيرلي».

«أشتكي من نيبز».

«أوه يا الهي، يخطر لي أحيانًا أن إزعاج الأطفال أكبر من بهجتهم»، صاحت وندي.

أخبرتهم أن ينصرفوا، ثم جلست إلى سلة عملها، وفيها كومة كبيرة من الجوارب وكل ركبة عليها شق كالعادة.

«إنني كبير على المهد يا وندي»، احتج مايكل.

«لا بد أن يكون لدي أحد في المهد» قالت بحدة، «وأنت الأصغر، ثم إن المهد شيء حميم جميل في البيت».

كانوا يلعبون حولها وهي تخيط. جمع من الوجوه السعيدة والأطراف الراقصة تضيئها النار الودودة. لقد صار هذا منظرًا مألوفًا في المنزل تحت الأرض، لكننا ننظر إليه للمرة الأخيرة.

كان في الأعلى وقع خطوات، وكانت وندي، طبعًا، أول من سمعها.

«أيها الأولاد، أسمع وقع خطوات أبيكم، وهو يحب أن تلاقوه عند الباب».

وفي الأعلى جثا الهنود الحمر أمام بيتر.

«احرسوا جيدًا أيها المحاربون، كما آمركم».

وعندئذ، كما كان يحدث كثيرًا من قبل، يجذبه الأطفال الجذلون من شجرته، كما كان يحدث كثيرًا من قبل لكنه لن يحدث ثانية.

جلب معه ثمار جوزٍ للأولاد والوقت الدقيق لوندي.

«إنك تفسدهم يا بيتر»، تكلفت وندي الابتسامة.

«أجل أيتها السيدة العجوز»، قال بيتر وهو يعلق سلاحه.

«أنا من أخبره أن الأمهات يدعين السيدة العجوز»، همس مايكل لكيرلي.

«أشتكي من مايكل» قال كيرلي فورًا.

جاء أحد التوءمين إلى بيتر «نريد أن نرقص يا أبي».

«ارقص بعيدًا، يا رجلي الصغير»، قال بيتر الذي كان في مزاج جذل.

«لكننا نريدك أن ترقص أنت».

كان بيتر أفضل راقص بينهم، لكنه تظاهر بالخجل.

«أنا! لتهتز عظامي الهرمة».

«وماما أيضًا».

«عجبًا، الأم مشغولة اليدين، ترقص!».

«ولكنها ليلة السبت»، ألمح سلايتلي.

كانت ليلة السبت حقًا، أو أنها قد تكون كذلك على الأقل، لأنهم فقدوا عد الأيام منذ وقت طويل، غير أنهم إن أرادوا فعل أمر مميز قالوا إنها ليلة السبت، ثم يفعلونه.

«إنها ليلة السبت فعلًا يا پيتر»، قالت وندي.

«هل يرقص أشخاص بعمرنا يا وندي؟».

«ولكن ذلك بين أولادنا فحسب».

«صحيح، صحيح».

فقالوا إن بإمكانهم الرقص عندئذ، لكن عليهم ارتداء مناماتهم أولًا.

«آه، أيتها السيدة العجوز»، قال پيتر لوندي جانبًا، وهو يستدفئ أمام النار وينظر إليها حين جلست ترقع كعبًا «ما من شي أسعد لك ولي من أمسية بعد الفراغ من كدح النهار، يفوق الاسترخاء قرب النار والصغار حولنا».

«إنه جميل يا پيتر، أليس كذلك؟»، قالت وندي مسرورة للغاية. «أظن أن لكيرلي أنفًا مثل أنفك يا پيتر».

«أما مايكل فيشبهك».

فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه.

«عزيزي بيتر، لا بد أنني فقدت جمالي بعد عائلة كبيرة كهذه، لكنك لا تفكر بتغييري، أليس كذلك؟».

«كلا يا وندي».

لم يكن راغبًا بالتغيير قطعًا، لكنه نظر إليها بقلق وهو يرمش، مثل امرئ لا يدري إن كان نائمًا أم مستيقظًا، كما تعرفون.

«ما الأمر يا بيتر؟».

«لقد كنت أفكر»، قال بشيء من الوجل، «إن كوني أباهم ليس إلا خيالًا، صحيح؟».

«أوه، بلى»، قالت وندي بتكلف.

فواصل حديثه معتذرًا: «سيجعلني ذلك أبدو مسنًا إن كنت أباهم حقًا، كما ترين».

«لكنهم أولادنا يا بيتر، أنا وأنت».

«لكن ليس حقًا يا وندي»، قال متوترًا.

«ما دمت لا ترغب بذلك» أجابت، وسمعته يتنفس الصعداء بجلاء، فسألته محاولة أن تتحدث بحزم «كيف تشعر نحوي بالضبط يا بيتر؟».

«أحمل مشاعر ابن مخلص يا وندي».

«وهذا ما ظننته»، قالت وذهبت وجلست وحدها في الطرف الأقصى من الغرفة.

فقال وقد بدت عليه الحيرة «أنت غريبة جدًا، تايغر ليلي مثلك تمامًا. ثمة أمر تود أن تكونه بالنسبة إلي، لكنها تقول إنها لا تود أن تكون أمي».

«كلا طبعًا، ليس ذاك»، ردت وندي بحزم مخيف. وها نحن الآن فهمنا لم كانت متحاملة على الهنود الحمر.

«ما هو إذًا؟».

«لا يمكن لسيدة أن تفصح عنه».

«أوه حسن جدًا، ربما تخبرني به تنكر بل»، قال پيتر غاضبًا قليلًا.

«أوه أجل، ستخبرك تنكر بل. إنها كائنة صغيرة خليعة»، ردت وندي موبخة.

هنا صاءت تنكر، التي كانت في مخدعها تسترق السمع، شيئًا وقحًا.

«إنها تقول إنها تحب كونها خليعة»، فسر لها پيتر.

خطرت له فكرة «لعل تنكر تود أن تكون أمي؟».

«أيها الأحمق السخيف!»، صاحت تنكر بانفعال.

كانت تقول هذا كثيرًا فلم تحتج وندي لترجمة.

«أكاد أوافقها»، ردت وندي بحدة، وندي الأنيقة ترد بحدة، لكنها حاولت كثيرًا، ولم تعرف ما سيحدث قبل أن يزول الظلام، ولو عرفت ما كانت لترد بحدة.

لم يعرف أي منهم، وربما كان من الأفضل ألا يعرفوا، فقد منحهم جهلهم ساعة سعيدة أخرى. وما دامت ستكون ساعتهم الأخيرة على الجزيرة، لنبتهج أن فيها ستين دقيقة. رقصوا وغنوا بثياب النوم، يا لها من أغنية غريبة جميلة، تظاهروا فيها بالخوف من ظلالهم، فطنين قليلًا أن الظلال سرعان ما ستُطبق عليهم، وسينكمشون خوفًا منها خوفًا حقيقيًا. كان الرقص مرحًا صاخبًا، وكم نازلوا بعضهم بعضًا على الفراش وخارجه! كان قتالًا بالوسائد أكثر من كونه رقصًا، وحين انتهى استمرت الوسائد في جولة قتال أخرى، مثل شركاء عرفوا أنهم لن يلتقوا ثانية. وسردوا القصص قبل أن يحين موعد قصة النوم التي تحكيها وندي! حتى سلايتلي حاول أن يحكي قصة تلك الليلة، لكن البداية كانت مخيفة للغاية حتى أنها أخافته هو نفسه، وقال بحزن:

«أجل إنها بداية مروعة، لنتظاهر أنها النهاية».

ثم خلدوا إلى الفراش كلهم لسماع قصة وندي، القصة التي أحبوها أكثر من الأخَر، والقصة التي كرهها بيتر. كانت حين تبدأ بحكاية القصة عادة يغادر الغرفة أو يضع يديه على أذنيه، ولربما لو أنه فعل واحدًا من هذين الأمرين هذه المرة لكانوا جميعًا ما زالوا على الجزيرة، لكنه الليلة ظل جالسًا على مقعده، وسنرى ما حدث.

الفصل الحادي عشر

قصة وندي

«اسمعوا إذًا»، قالت وندي وهي تجلس لحكاية قصتها، ومايكل يجلس قرب قدميها وسبعة أولاد في الفراش.

«كان رجل محترم...».

«أفضل أن تكون سيدة»، قال كيرلي.

«أتمنى لو كان جرذًا أبيض»، قال نيبز.

«هدوء»، حذرتهم أمهم «ولدينا سيدة أيضًا و...».

«يا ماما، تعنين أن هناك سيدة أيضًا، أليس كذلك؟ وهي ليست ميتة، أليس كذلك؟»، صاح أحد التوءمين.

«أوه، كلا».

«أنا في غاية السرور أنها ليست ميتة»، قال توتلز، «هل أنت سعيد يا جون؟».

«أنا سعيد طبعًا».

«هل أنت سعيد يا نيبز؟».

«قليلًا».

«هل أنتما سعيدان أيها التوءمان؟».

«نحن سعيدان».

«يا إلهي»، تنهدت وندي.

«اصمتوا قليلًا»، صاح بيتر عاقدًا العزم على أن تحظى وندي بنصيب عادل من الحديث، مهما كانت هذه القصة متوحشة في رأيه.

واصلت وندي «كان اسم السيد المحترم السد دارلنغ، واسمها السيدة دارلنغ».

«أنا أعرفهما»، قال جون ليغيظ البقية.

«أظنني أعرفهما»، قال مايكل بشيء من الارتياب.

قالت وندي: «كانا زوجين كما تعرفون. وماذا كان لديهم برأيكم؟».

«جرذان بيضاء»، هتف نيبز متحمسًا.

«لا».

«هذا محير جدًا»، قال توتلز الذي يحفظ القصة عن ظهر قلب.

«صمتًا يا توتلز، كان لديهم ثلاثة أبناء».

«ما معنى الأبناء؟».

«أنت أحدهم أيها التوءم».

«هل سمعت هذا يا جون؟ أنا ابن».

«الأبناء ليسوا سوى أطفال»، قال جون.

«يا إلهي، يا إلهي!»، تنهدت وندي. «وكان لهؤلاء الأطفال مربية أمينة تدعى نانا، لكن السيد دارلنغ غضب منها فربطها بسلسلة في الفناء فطار كل الأولاد بعيدًا».

«إنها قصة حلوة جدًا»، قال نيبز.

تابعت وندي: «طاروا إلى نفرلاند، حيث يعيش الفتية التائهون».

«لقد ظننت أنهم كذلك»، قال كيرلي بحماس، «لست أدري كيف، لكن خطر لي ذلك توًا».

«هل كان أحد الأطفال التائهين يدعى توتلز يا وندي؟»، هتف توتلز.

«أجل، إنه كذلك».

«أنا في حكاية، مرحى، أنا في حكاية يا نيبز».

«صه، أود الآن أن نفكر بمشاعر الأبوين التعسين اللذين طار أولادهم كلهم بعيدًا».

«أوه»، بكوا كلهم، رغم أنهم لم يكونوا يفكرون حقًا بمشاعر الأبوين التعسين البتة.

«تخيلوا الأسرة الفارغة».

«أوه».

«هذه حكاية محزنة جدًا»، قال أحد التوءمين مبتهجًا.

«لست أدري كيف ستنتهي نهاية سعيدة»، قال التوءم الآخر، «هل تعرف يا نيبز؟».

«أنا قلق للغاية».

قالت لهم وندي بنبرة انتصار: «لو كنتم تعرفون عظمة حب الأم، فلن تشعروا بالخوف أبدًا». وقد وصلت الآن إلى الجزء الذي يكرهه بيتر.

«أنا أحب حب الأم فعلًا»، قال توتلز ضاربًا نيبز بوسادة، «هل تحب حب الأم يا نيبز؟».

«أحبه حقًا»، قال نيبز وهو يرد الضربة.

قالت وندي برضا: «كما ترون، عرفت بطلتنا أن الأم لا بد أن تترك النافذة مفتوحة دومًا ليعود أطفالها، فقد ظلوا بعيدين لسنوات وقضوا وقتًا ممتعًا».

«هل عادوا يومًا؟».

قالت وندي مهيئة نفسها لأفضل محاولاتها «دعونا نسترق النظر إلى المستقبل» وصنعوا كلهم الحركة التي تجعل الاستراق الى النظر أسهل، «مرت السنون، ومَن هذه السيدة الأنيقة التي لا يُعرف عمرها التي تترجل عند محطة لندن؟».

«من هي يا وندي؟»، صاح نيبز متحمسًا لكل جزء كأنه لا يعرف.

«يمكن أن تكون، أولا تكون، الآنسة وندي!».

«أوه!».

«ومن هذان النبيلان اللذان يصحبانها وقد دخلا الآن طور الرجولة؟ هل هما جون ومايكل؟ أنهما هما!».

«أوه!».

«انظرا يا أخويّ الحبيبين»، قالت وهي تشير للأعلى، «ثمة نافذة لم تزل مفتوحة وها قد كوفئنا لإيماننا المطلق بحب الأم». فطاروا إلى أمهم وأبيهم، ولا يمكن للقلم أن يصف المشهد السعيد، الذي نرخي عليه الستار.

كانت هذه قصة، وكانوا مسرورين بها جدًا بقدر الراوية الجميلة نفسها. كان كل شيء كما يجدر به أن يكون كما ترون. نغادر مثل أكثر الناس قسوة في هذا العالم، كما هم الأطفال، لكن الرحيل مغرٍ للغاية، ثم نقضي وقتًا في إمتاع أنفسنا، وحين نكون بحاجة للاهتمام نعود إلى حب الأم برفق واثقين أنها ستعانقنا بدلًا من صفعنا.

كانت ثقتهم بحب أمهم كبيرة جدًا، فشعروا أن بوسعهم أن يكونوا قساة القلب لوقت أطول قليلًا.

غير أن واحدًا منهم كان يفوقهم معرفة، وحين انتهت وندي أطلق أنينًا مكتومًا.

«ما الأمر يا بيتر؟»، صاحت وهي تجري نحوه، ظانة أنه

مريض. فتحسست جسده أسفل صدره قليلًا بقلق «أين موضع الألم يا بيتر؟».

فأجاب بيتر بحزن: «إنه ليس هذا النوع من الألم».

«فمن أي نوع إذًا؟».

«أنت مخطئة بشأن الأمهات يا وندي».

التفوا كلهم حوله في ذعر، فقد كان غضبه مخيفًا، وأخبرهم بصراحة شديدة ما أخفاه عنهم حتى الآن.

قال: «منذ زمن بعيد ظننت مثلك أن أمي ستبقي النافذة مفتوحة لي دومًا، لذا ظللت بعيدًا لأقمار وأقمار وأقمار، ثم طرت عائدًا، لكن النافذة كانت مغلقة لأن أمي وأبي نسيا أمري تمامًا، وفي فراشي نام ولد آخر».

لست متأكدًا إن كان هذا صحيحًا لكن بيتر ظنه كذلك، وهذا أخافهم.

«هل أنت متأكد أن الأمهات هكذا؟».

«أجل».

وكانت هذه حقيقة الأمهات، التافهات!

ومع ذلك فإن من الأفضل توخي الحذر، ولا أحد يعرف سريعًا بقدر ما يعرف الطفل متى عليه أن يستسلم. «دعينا نعود للبيت يا وندي»، صاح مايكل وجون معًا.

«أجل»، قالت متشبثة بهما.

«لن تذهبوا الليلة، أليس كذلك؟» تعجب الفتية التائهون، فقد عرفوا فيما يسمونها قلوبهم أن المرء يستطيع العيش دون أم، وأن الأمهات فقط هن من يظنّ أن المرء لا يستطيع ذلك.

«بل سنذهب في الحال»، أجابت وندي بعزم، فقد خطرت لها فكرة مخيفة، «ربما كانت أمنا تبكي في هذه اللحظة».

جعلتها هذه الفكرة المخيفة تنسى ما يشعر به پيتر، وقالت له بشيء من الحدة «هلا اتخذت الترتيبات اللازمة يا پيتر؟».

«إن أردت ذلك»، رد ببرود كأنها قد سألته أن يمرر لها حبات الجوز.

لم يحدث الكثير لإظهار الأسى لفقدان بعضهما! فما دامت هي لا تكترث للفراق، فسيظهر لها أنه لا يبالي به أيضًا، كعادته.

لكنه كان مباليًا بالطبع، وكان الغضب يملؤه على الكبار الذين كانوا، كالعادة، يفسدون كل شيء، حتى إنه ما إن دخل شجرته أطلق زفرات قصيرة سريعة متعمدًا بمعدل خمس زفرات في الثانية. وفعل ذلك لأنه أشيع في نفرلاند أنك كلما تنفست مات واحد من الكبار، وكان پيتر يقتلهم انتقامًا بأقصى ما يمكنه من سرعة.

ثم عاد إلى البيت بعد أن أعطى التعليمات الهنود الحمر اللازمة، حيث كان يجري مشهد غير لائق في غيابه. بعد أن أصيبوا بالهلع لفكرة فقدان وندي، تقدم الفتية التائهون إليها متوعدين.

«ستكون الأمور أسوأ مما كانت عليه قبل قدومها»، هتفوا.

«لا يجدر بنا السماح لها بالذهاب».

«لنبقها سجينة».

«أجل، قيدوها بالسلاسل».

أنبأتها غريزتها في كربها لأيّهم تلتفت.

فصاحت «ألتمس إليك يا توتلز».

أليس ذلك غريبًا؟ لقد توسلت إلى توتلز أسخفهم حقًا.

ومع ذلك فقد استجاب لها توتلز بقوة، لأنه تخلى تلك اللحظة عن سخافته وتحدث بوقار.

قال «أنا لست إلا توتلز، ولا أحد يأبه بي. لكنني سأسفك بقسوة دم أول من لا يتصرف مع وندي مثل سيد إنجليزي مهذب».

وسحب سيفه، وبفضل هذه الحادثة كان يشعر أنه بأفضل حالاته. تراجع الآخرون بضيق. ثم عاد بيتر، ورأوا أنهم لن يحصلوا على أي عون منه، فلن يبقي فتاة في نفرلاند رغمًا عنها.

قال وهو يذرع المكان جيئة وذهابًا «لقد أمرت الهنود الحمر ليرشدوكم عبر الغابة يا وندي، ما دام الطيران يتعبك».

«شكرًا لك يا بيتر».

وواصل حديثه بصوت قصير حاد مثل صوت من اعتاد أن يطاع «ثم ستأخذكم تنكر بل عبر البحر، أيقظها يا نيبز».

اضطر نيبز أن يطرق مرتين قبل أن يتلقى جوابًا، رغم أن تنك كانت تجلس على الفراش تستمع لبعض الوقت. «من أنت؟ كيف تجرؤ؟ انصرف»، صاحت.

«عليك أن تنهضي يا تنك»، هتف نيبز، «وتأخذي وندي في رحلة».

كانت تنك مسرورة طبعًا لمعرفة أمر مغادرة وندي، لكنها عقدت العزم تمامًا على ألا تكون رفيقتها، ورفضت بلغة أكثر وقاحة، ثم تظاهرت بالنوم ثانية.

«قالت إنها لن تفعل»، قال نيبز، متعجبًا من عصيانها، وعندئذ اتجه بيتر بحزم نحو غرفة السيدة الصغيرة.

قال موبخًا «إن لم تنهضي وترتدي ثيابك حالًا يا تنك، سأرفع الستائر وسنراك جميعًا في مبذلك».

جعلها هذا تهب واقفة «من قال إني لم أنهض؟».

كان الفتية أثناء هذا يحدقون متجهمين بوندي، التي تهيأت مع جون ومايكل للرحلة. فغمرهم الحزن عندئذٍ، ليس لأنهم على وشك فقدانها فحسب، بل لأنهم شعروا أيضًا أنها ذاهبة إلى شيء جميل لم يدعوا إليه. إذ كانت تغريهم الأمور الجديدة كالعادة.

رق قلب وندي، وهي تسبغ عليهم مشاعر أنبل، وقالت «أعزائي، إن جئتم كلكم معي فأنا واثقة أن أبي وأمي سيتبنيانكم».

كانت تقصد بيتر تحديدًا بدعوتها، لكن كل واحد من الفتية كان يفكر بنفسه، وقفزوا من الفرح معًا.

«ولكن ألن يريا أننا كثيرون بعض الشيء؟»، سأل نيبز في منتصف قفزه.

«أوه، كلا»، قالت وندي وهي تفكر بالأمر سريعًا، «لأن ذلك سيعني بضعة أسرّة في غرفة الجلوس فحسب، يمكن إخفاؤها خلف الستائر في أيام الخميس».

«هل يمكننا الذهاب يا بيتر؟»، صاحوا كلهم متوسلين، فقد كانوا واثقين أنه سيذهب أيضًا إن ذهبوا، لكنهم لم يهتموا بذلك حقًا إلا قليلًا. هكذا يكون الصغار مستعدين دومًا، حين تدعوهم الأمور الجديدة، للتخلي عن أعزائهم.

«حسن»، أجاب بيتر بابتسامة حزينة وانطلقوا كلهم يجمعون حاجياتهم.

«والآن يا بيتر»، قالت وندي ظانة أنها وضعت الأمور في نصابها، «سأعطيك دواءك قبل ذهابك». كانت تهوى إعطاءهم الدواء، وأعطتهم الكثير منه قطعًا. كان مجرد ماء طبعًا، لكنه كان في يقطينة، وكانت دومًا ترجها وتحصي القطرات، ما أضفى عليه سمة دوائية. لم تعط بيتر هذا الشراب هذه المرة على أية حال، لانها ما إن حضرته حتى رأت على وجهه نظرة جعلت وجب لها قلبها.

«اجمع حاجياتك يا بيتر»، بكت مرتجفة.

«كلا»، أجاب متظاهرًا باللامبالاة، «لست ذاهبًا معكم يا وندي».

«بلى يا بيتر».

«كلا».

وليظهر لها أن رحيلها لن يؤثر فيه، مشى في أنحاء الغرفة وهو يعزف بمرح على مزماره نغمات لامبالية. واضطرت للجري في أنحاء الغرفة للحاق به، رغم أن ذلك كان مهينًا بعض الشيء.

«لنعثر على أمك»، قالت متملقة.

لو كان لبيتر أم حقًا، فلم يعد يشتاق إليها، وكان يبلي حسنًا دون أم، لقد نسيها وتذكر خصالها السيئة.

«كلا، كلا»، قال لوندي حاسمًا، «ربما تقول إنني كبير، وأنا لا أريد سوى أن أظل صبيًا صغيرًا وأستمتع».

«لكن يا بيتر..».

«كلا».

لذا كان لا بد من إعلام البقية.

«لن يذهب بيتر».

لن يذهب بيتر! نظروا إليه ببلاهة، وعصيهم محمولة على ظهورهم، وفي كل عصًا لفافة. كان أول ما تبادر لأذهانهم إن لم يكن بيتر ذاهبًا فلا بد أنه غير رأيه حيال السماح لهم بالذهاب.

لكنه كان مغرورًا جدًا لفعل ذلك وقال بأسى «أرجو أن تحبوا أمهاتكم إن عثرتم عليهن».

تركت هذه الملاحظة الساخرة انطباعًا بغيضًا، وأخذ معظمهم يبدون مرتابين. أليسوا سذجًا لرغبتهم بالذهاب، كما وشت وجوههم؟

«والآن»، صاح بيتر، «بلا فوضى، وبلا ثرثرة، وداعًا يا وندي»، ومد يده مسرورًا، كأنما عليهم الذهاب الآن فعلًا، لأن لديه أمرًا مهمًا يفعله.

اضطرت لمصافحته، ولم تكن ثمة إشارة تبين أنه يرغب بكشتبان[1].

«هل ستتذكر أن تغير ثيابك الداخلية يا بيتر؟»، قالت وهي تتباطأ قربه. فقد كانت نيقة دومًا في أمر الثياب الداخلية.

«أجل».

«وستتناول دواءك؟».

«أجل».

بدا أن هذا هو كل شيء، فتلا ذلك صمت مطبق. لم يكن بيتر، رغم ذلك، من النوع الذي ينهار لفراق الأشخاص «هل أنت جاهزة يا تنكر بل؟»، صاح بها.

---

(١) المقصود القبلة طبعًا، لكن هذا عائد إلى الخلط بين القبلة والكشتبان كما حدث في الفصل الأول.

«أجل، أجل».

«فأرشديهم إلى الطريق إذًا».

اندفعت تنك خارجة من الشجرة الأقرب، غير أن أحدًا لم يتبعها، لأن القراصنة شنوا هجومهم المخيف في تلك اللحظة على الهنود الحمر. إلى جانب ذلك، كان الصراخ وارتطام الفولاذ يشقان الفضاء، حين كان كل شيء هادئًا. كان الصمت مطبقًا في الأسفل. الأفواه مفتوحة وظلت مفتوحة، وجثت وندي على ركبتيها لكنها مدت ذراعيها نحو بيتر، وكل الأذرع كانت ممدودة نحوه، كأنما هبت عليها الريح فجأة بهذا الاتجاه. لقد كانوا يتوسلون إليه بصمت ألا يتركهم، أما بيتر فقد أمسك بسيفه، السيف نفسه الذي ظن أنه ذبح باربكيو به، ولمعت في عينيه رغبة القتال.

الفصل الثاني عشر
الأطفال يرحلون

كان هجوم القراصنة مفاجأة تامة، ودليلًا أكيدًا على أن هوك عديم الضمير قد قاده بطريق الخطأ، لأن مباغتة الهنود الحمر أمر يفوق ذكاء الرجل الأبيض حقًا.

كان الهنود الحمر دومًا، في كل القوانين غير المكتوبة للحروب الوحشية، من يبدأ الهجوم، ويفعلون ذلك، بفضل المكر الذي يتحلى به عرقهم، قبل الفجر أي قبل الوقت الذي يعرفون أن شجاعة البيض فيه تكون في أدنى مستوياتها. في تلك الأثناء أعد البيض حاجزًا مؤقتًا على قمة الأرض المتعرجة البعيدة، التي يجري جدول في سفحها ليكون القتال بعيدًا عن الماء. انتظروا هناك بدء الهجوم، وكان الأغرار منهم يقبضون على مسدساتهم ويتنقلون بين الأغصان، لكن الخبيرين منهم ناموا بهدوء إلى ما قبل الفجر. تسلل المستكشفون المتوحشون مثل الأفاعي بين الحشائش دون إشهار نصل في الليل البهيم الطويل. وكان الدغل ينغلق خلفهم بهدوء، مثلما تنغلق الأرض بعد هبوط الخلد. ولم يسمع صوت، إلا حين

أطلقوا صوتًا يقلدون فيه صرخة القيوط الوحيد تقليدًا رائعًا، وجاء الرد على الصرخة بصرخات من الهنود الآخرين، وصرخ بعضهم أفضل مما يفعل القيوط، الذي لم يكن يحسن الصراخ. وهكذا انقضت الساعات الباردة، وأرهقت الإثارة الطويلة الرجل الأبيض الذي عليه أن يعيشها للمرة الأولى، لكن الخبيرون لم يروا في هذه الصرخات الغريبة والصمت الأغرب سوى محاكاة لمرور الليل.

كان هوك يعرف هذا الإجراء المعتاد حق المعرفة، ولا يمكن أن يُعذر لإغفاله بسبب الجهل.

التزم البيكانينيون من جانبهم بهذا الشرف التزامًا مطلقًا، وكانت كل حركاتهم ليلًا تبرز في تناقض واضح مع فعل هوك. ولم يتهاونوا في فعل أمر يناسب سمعة قبيلتهم. وقد عرفوا، بحواسهم اليقظة التي كانت تثير عجب المتحضرين وقنوطهم، أن القراصنة كانوا على الجزيرة منذ اللحظة التي وطئ فيها أحدهم على غصن جاف، وبدأت صيحات القيوط في فترة زمنية بالغة القصر. فحص المحاربون خلسة كل قدم من الأرض بين البقعة التي أنزل فيها هوك قواته وبين المنزل تحت الأرض، وهم يرتدون المقسين وقد تقدمهم الخسيسون. فوجدوا أكمة واحدة في سفحها جدول، بحيث لا يبقى أمام هوك خيار إلا أن يهيئ نفسه وينتظر حتى ما قبل الفجر. كان كل شيء مخططًا بمهارة شيطانية، إذ لف جمع من محاربي الهنود الحمر الكبار أغطيتهم حولهم، وربضوا برباطة جأش، هي جوهر الرجولة، فوق منزل الأطفال في انتظار اللحظة المخيفة، حين يواجهون الموت الزؤام.

هنا كان يحلم، رغم أنه مستيقظ تمامًا، بالعذابات الغريبة التي سيخضعونه لها عند طلوع النهار، هؤلاء المتوحشون الجريئون الذين وجدهم هوك اللئيم. تبين لاحقًا من روايات المحاربين الذين فروا من المذبحة، أنه لم يقف عند الأرض المرتفعة، رغم أن من المؤكد أنه رآها في الضوء الرمادي، ولا يبدو أن فكرة انتظار هجومهم قد طرأت على عقله الخبيث أولًا وآخرًا. كما أنه لم ينتظر حتى انقضاء الليل، بل مضى بلا خطة سوى الإقدام على ذلك. ما الذي سيفعله المحاربون المباغَتون، وقد خبروا كل خدعة حربية عدا هذه، إلا أن يهرولوا عاجزين خلفه، مجازفين بانكشاف أمرهم على نحو مهلك، في الوقت الذي أطلقوا فيه صرخات القيوط المثيرة للشفقة.

كانت تايغر ليلي محاطة بجمع من أشجع مقاتليها، وفوجئوا بهجوم القراصنة الماكرين عليهم. فزالت عندئذٍ عن أعينهم الغشاوة التي كانوا ينظرون إلى النصر من خلالها، لكنهم لن يفروا من المغامرة، إذ كانت أرض الصيد السعيدة تدعوهم الآن. عرفوا ذلك لكنهم أبلوا بلاء حسنًا مثل أسلافهم. ورغم أن الوقت كان كافيًا ليتجمعوا في كتيبة يصعب هزيمتها لو أنهم نهضوا بسرعة، فإن تقاليد عرقهم تحظر عليهم ذلك. إذ جاء فيها أن المتوحش النبيل لا يُظهر أنه أخذ على حين غرة في حضور البيض بتاتًا. وهكذا ظلوا هادئين لبعض الوقت دون أن يحركوا عضلة، رغم أن ظهور القراصنة المباغت كان فظيعًا، كأن الخصم جاء ملبيًا دعوة. ثم تقلدوا سلاحهم، بعد تطبيقهم للتقاليد تطبيقًا نبيلًا، وشقت الهواءَ صرخةُ الحرب، لكن الوقت كان متأخرًا.

ليس لنا من جهتنا أن نصف ما كانت مذبحة أكثر من كونها معركة، فقد هلك كثير من خيرة مقاتلي قبيلة الپيكانيني. غير أنهم لم يموتوا جميعهم دون الأخذ بثأرهم، فقد قتل، ثأرًا للين ولف، آلف ماسن لئلا يزعج البحر الكاريبي بعد اليوم. وكان جيو وسكورّي تشاس وتيرلي وفوغرتي الإلزاسي من بين الآخرين الذين قتلوا. وقد قتل تيرلي انتقامًا لراقي القبيلة پانتر الرهيب، الذي شق الطريق بقوة بين صفوف القراصنة مع تايغر ليلي وقليل ممن تبقى من أفراد القبيلة.

نترك للمؤرخين أن يقرروا إلى أي حد يلام هوك على خططه في هذه الحادثة. فلو أنه انتظر على الأرض المرتفعة حتى الساعة المناسبة، لكان ذبح هو ورجاله على الأرجح، وفي الحكم عليه سيكون من العدل أخذ هذا بعين الاعتبار. لكن كان عليه أن يُعلم خصومه أنه ينوي اتباع طريقة جديدة. غير أنه، من جهة أخرى، إن تخلى عن عنصر المفاجأة، كان سيجعل خطته غير ذات جدوى، ولذا فإن الأمر برمته محاط بالصعوبات ولا يمكن للمرء، على الأقل، إلا أن يبدي إعجابه الشديد بالعقل الذي دبر الخطة الجسورة، والعبقرية البارعة التي نفذت بها.

كيف كان شعوره تجاه نفسه في لحظة النصر تلك؟ كان رجاله سيسرون لمعرفة ذلك، وهم يلهثون ويمسحون سيوفهم، وقد تجمعوا على مسافة بعيدة من خطافه، يُخزرون أعينهم الثاقبة على هذا الرجل الخارق. لا بد أن البهجة تملأ قلبه، لكن وجهه لا يظهر هذا، إذ كان لغزًا داكنًا ومنعزّلا على الدوام، وقد وقف بعيدًا عن أتباعه بالروح والجسد.

لم ينته عمل الليل بعد، لأن هوك لم يأت للقضاء على الهنود الحمر، الذين لم يكونوا سوى النحل الواجب حرقه للوصول إلى العسل. كان يريد بيتر پان، پان ووندي وعصابتهما، لكنه أراد پان أكثر من البقية.

كان بيتر صبيًا صغيرًا فحسب، حتى ليعجب المرء من بغض الرجل له. صحيح أنه رمى ذراع هوك للتمساح، ولكن حتى هذا السبب والقلق الدائم الذي أدى إليه، نظرًا لإلحاف التمساح، لا يمكن أن يكون سببًا لحقد أبدي وخبيث. الحقيقة أن في بيتر شيئًا كان يقود قائد القراصنة نحو الجنون، لم تكن شجاعته ولم يكن مظهره الجذاب، ولم يكن... لا حاجة بنا للف والدوران، لأننا نعرف ما هو، وعلينا أن نفصح عنه. لقد كان غرور بيتر.

كان هذا يثير جنون هوك، ويجعل خطافه المعدني يتشنج، وفي الليل كان يضايقه مثل حشرة. شعر الرجل المُعنّى بأنه أسد في قفص دخل إليه سنونو، في الوقت الذي يستمتع فيه بيتر بحياته.

كان السؤال الآن كيف ينزل من الأشجار، أو كيف يجعل رجاله ينزلون. مرر عينيه الجشعتين عليهم، باحثًا عن أنحفهم، فتلووا كلهم بضيق، لأنهم عرفوا بأنه لن يتردد في حشرهم في الأسفل بالقضبان.

ماذا فعل الفتية أثناء ذلك؟ رأيناهم في البدء يتشبثون بأسلحتهم، وتركناهم كأنهم تحولوا إلى تماثيل حجرية، فاغري أفواههم كلهم متضرعين لبيتر بأيد ممدودة. ونعود إليهم وقد سدوا أفواههم

وخفضوا أيديهم. توقفت الجلبة في الأعلى فجأة مثلما اندلعت فجأة، ومرت مثل هبّة عنيفة للريح، لكنهم عرفوا أنها قررت مصيرهم في مرورها.

أي فريق فاز؟

سمع القراصنة، الذين كانوا يسترقون السمع من فتحات الأشجار، السؤال الذي طرحه كل الفتية، ووا أسفاه! فقد سمعوا أيضًا رد بيتر.

قال: «لو فاز الهنود الحمر فسينقرون الطبل نقرات رتيبة، فهذه علامة النصر لديهم دائمًا».

عثر سمي على الطبل وكان يجلس عليه تلك اللحظة، «لن تسمعوا الإيقاع ثانية» همهم في سره طبعًا، لأن الصمت المطبق كان مطلوبًا. دهش حين أمره هوك أن ينقر الطبل، وفهم سمي ببطء الخدعة الرهيبة في أمره. لم يسبق لهذا الرجل الساذج على الأرجح أن أعجب بهوك بهذا القدر.

نقر سمي الطبل مرتين ثم توقف ليصغي بفرح.

سمع الأشرار هتاف بيتر «هذا نقر الطبل، النصر من نصيب الهنود الحمر!».

أجاب الأطفال تعسو الحظ ببهجة كانت موسيقى للقلوب السوداء في الأعلى، وكرروا وداعاتهم لبيتر على الفور. وقد أثار هذا حيرة القراصنة، لكن الفرح الساذج بأن العدو يوشك على الصعود

ابتلع كل مشاعرهم الأخرى. فتبادلو الابتسامات، وفركوا أيديهم. أعطى هوك أوامره بسرعة وهدوء، ليقف رجل واحد أمام كل شجرة، وليرتب الآخرون أنفسهم في صف على بعد ياردتين.

الفصل الثالث عشر
هل تؤمن بالجنيات؟

كلما فرغنا من هذا الحديث المرعب سريعًا كان أفضل.

كان كيرلي أول من خرج من شجرته، وبرز خارجًا منها إلى ذراعي تشيكو الذي رماه إلى سمي، الذي رماه إلى ستاركي، الذي رماه إلى بيلي جكس، الذي رماه إلى نودلر، وهكذا تقاذفوه من واحد لآخر حتى وقع عند أقدام القرصان اللئيم. انتزع كل الفتية من أشجارهم بهذه الطريقة عديمة الرأفة، وكان عدد منهم في الهواء وحده، مثل إبّالة تلقى من يد إلى أخرى.

لكن وندي، التي كانت آخر من خرج، تلقت معاملة مختلفة. فقد رفع هوك قبعته لها بتهذيب ساخر، ومد لها ذراعه واصطحبها إلى البقعة التي حبس فيها الآخرون. فعل ذلك بشيء من التفاخر، فقد كان رفيع الخلق، حتى إنها كانت مفتونة جدًا وعجزت عن البكاء. فلم تكن إلا فتاة صغيرة.

ربما نفشي سرًا إن قلنا إن هوك أعجبها للحظة، ونحن نشي بها لأن زلتها أفضت إلى عواقب وخيمة. لو أنها رفضت مصافحته

عجرفة (وكنا سنحب أن نكتب ذلك عنها)، لقذفت في الهواء مثل الآخرين، ولم يكن عندها هوك ليحضر وثاق الأطفال، ولو لم يحضر وثاقهم لم يكن ليعرف سر سلايتلي، ولم يكن، دون هذا السر، ليعتدي على حياة پيتر اعتداءه الشنيع.

رُبط الفتية لمنعهم من الطيران، مطويين وآذانهم قرب ركبهم. وقطع القرصان الشرير حبلًا إلى تسع قطع متساوية لتقييدهم. ومضى كل شيء على ما يرام حتى حان دور سلايتلي، حين اتضح أنه مثل الطرود المزعجة التي تستنفد كل الخيوط في لفها دون بقاء أطراف تصنع منها عقدة. ركله القراصنة من غضبهم، كما يُركل الطرد (رغم أنك يجب أن تركل الخيط، إن أردتَ أن تكون عادلًا)، ومن الغريب القول إن هوك هو من أخبرهم أن يكفوا عن عنفهم. كانت شفته متعرجة بفضل النصر اللئيم، حين كان العرق يتصبب من رجاله، لأنهم كلما حاولوا ربط الفتى التعس من جهة برز من الجهة الأخرى، غير أن عقل هوك الخبير غاص في أعماق سلايتلي، باحثًا عن العلة لا النتيجة، وبدا من جذله أنه وجدها. عرف سلايتلي، الذي امتقع وجهه، أن هوك كشف سره، وكان كالتالي؛ ما من فتى بدين هكذا سيستخدم شجرة ينحشر فيها رجل معتدل البنية. كان سلايتلي المسكين الأسوأ حظًا من بين كل الأطفال، لأنه أصيب بالهلع خوفًا على پيتر وأسف بحرقة على ما فعله. لقد انتفخ سلايتلي إلى حجمه الحالي لأنه مولع بشرب الماء حين يشعر بالحر، وحفر فتحة شجرته لتناسبه، بدلًا من إنقاص وزنه ليناسبها.

خال هوك، مكتفيًا بهذا، أنْ يقنعه أن پيتر تحت رحمته أخيرًا،

لكن ما من كلمة لئيمة تشكلت في التجويفات الخفية لعقله قد عبرت شفتيه، بل اكتفى بالإشارة لنقل الأسرى إلى السفينة، وأنه يود أن يكون وحده.

كيف ينقلون؟ كان من الممكن دحرجتهم مثل البراميل ما داموا ملتفين في وثاقهم، لكن المستنقعات تحتل معظم الطريق. وذللت عبقرية هوك كل الصعاب، فقد ألمح إلى إمكان استخدام البيت الصغير وسيلة نقل. فيلقى به الأطفال، ويرفعه أربعة من القراصنة على أكتافهم، ويمشي خلفهم الآخرون وينطلق الموكب الغريب وهم يغنون أغنية القراصنة المروعة. لا أدري إن كان أحد من الأطفال يبكي، فإن كان كذلك فقد غطى الغناء على صوته، ولكن ما إن اختفى البيت الصغير من الغابة، حتى انبعثت من مدخنته نفثة دخان شجاعة، رغم صغرها، كأنها تتحدى هوك.

لقد رآها هوك، وقد أضر ذلك ببيتر، فقد محت رؤية نفثة الدخان أي أثر للرأفة ربما بقي في صدر القرصان الحانق.

كان أول ما فعله، بعد أن وجد نفسه وحيدًا في الليل الذي حل سريعًا، التسلل إلى شجرة سلايتلي والتأكد من أنها تتيح له المرور. ثم ظل يفكر وقتًا طويلًا، رافعًا قبعته على سيفه نذير نحس، فتخلل شعره نسيم لطيف هب منعشًا. كانت عيناه الزرقاوان، الداكنتان بقدر أفكاره، رقيقتين مثل زهرة الونكة[1]. فأصاخ السمع لأي

(١) زهور تتميز بوريقاتها الخمس المستوية ولونها المزرق المائل للأرجواني، يستخدم بعضها للزينة وبعضها في استخراج القلويات المستخدمة في الأدوية.

صوت قادم من العالم السفلي، لكن كل شيء كان صامتًا، في الأعلى والأسفل، وبدا أن المنزل تحت الأرض ليس سوى مسكن آخر ممعن في خلوّه. هل كان ذلك الولد نائمًا، أو أنه يقف بانتظاره أسفل شجرة سلايتلي حاملًا خنجره في يده؟

لم يكن له ليعرف إلا إن نزل. فجعل هوك عباءته تنزلق بهدوء على الأرض، ثم دخل إلى فتحة الشجرة وهو يعض شفتيه حتى خرج الدم الخبيث منهما. كان رجلًا شجاعًا، لكنه اضطر للوقوف هناك للحظة ومسح حاجبه الذي كان يقطر مثل شمعة. ثم أخذ ينزل إلى المجهول بصمت.

وصل دون إزعاج إلى المدخل، ووقف ساكنًا مرة أخرى، ملتقطًا أنفاسه التي كادت تفر منه. حين اعتادت عيناه الضوء الكامد، أخذ يرى الكثير من الأشياء في المنزل تحت الأشجار، غير أن الوحيد الذي استقرت عليه نظراته الجشعة، الذي بحث عنه طويلًا وعثر عليه أخيرًا، كان الفراش الكبير. كان پيتر مستلقيًا على الفراش وقد غط في النوم سريعًا.

واصل پيتر، جاهلًا بأمر المأساة التي تدور في الأعلى، العزف بمرح على مزماره لوقت قصير بعد مغادرة الأطفال، في محاولة يائسة بلا شك ليؤكد لنفسه أنه لا يهتم. ثم قرر ألا يأخذ دواءه، كأنه يغيظ وندي، ثم استلقى على الفراش فوق الأغطية، ليغضبها أكثر، لأنها كانت تغطيهم، إذ لا يمكن للمرء التأكد أنه لن يبرد في أثناء الليل. ثم أوشك على البكاء، لكنه تذكر كم ستكون ساخطة

إن ضحك عوضًا عن ذلك، فضحك ضحكة خبيثة وغط في النوم في منتصفها.

كان يحلم أحيانًا وليس كثيرًا، وكانت أحلامه أكثر إيلامًا من أحلام بقية الفتية. ولم يكن بوسعه الانفصال عن هذه الأحلام لساعات، رغم بكائه بحرقة فيها. كان لها علاقة، كما أظن، بلغز وجوده. في وقت كهذا كان من عادة وندي أن تخرجه من السرير وتجلسه على حجرها، وتهدئه بطرق جميلة من ابتكارها، وحين يهدأ تعيده إلى الفراش قبل أن يستيقظ تمامًا، فلا يعرف بأمر المعاملة المهينة التي أخضعته لها. لكنه هذه المرة غط في نوم بلا أحلام، وأحد ذراعيه ملقى على حافة السرير، وإحدى رجليه مقوسة، وكان الجزء غير المكتمل من ضحكته مكبوتًا في فمه المفتوح مظهرًا اللآلئ الصغيرة.

هكذا وجده هوك، أعزل. فوقف صامتًا أسفل الشجرة ينظر في الغرفة إلى عدوه. هل ضاق صدره المظلم بشعور بالعطف؟ لم يكن الرجل شريرًا تمامًا، فقد أحب الأزهار (كما قيل لي) والموسيقى الجميلة (لم يكن هو نفسه عازفًا رديئًا على البيان القيثاري) ولنقلها صراحة، لقد فتنته الهيئة المطمئنة للمشهد بجلاء. ولو أن روحه الطيبة امتلكت زمام الأمور، لعاد صاعدًا الشجرة غير راغب إلا بأمر واحد.

غير أن ما أبقاه هو هيئة بيتر الوقحة في نومه، بفمه المفتوح وذراعه الممدود وساقه المقوسة، إذ كانت علامات تجسد الغرور،

لن تتمثل كلها مجتمعة مرة أخرى، أمام مرأى عينين شديدتي الحساسية للإهانة، كما هو مأمول. لقد جعلت قلب هوك يقسو، كأن غضبه قد كسره إلى مئة قطعة وكل واحدة منها كرهت الحادثة ووثبت على النائم.

رغم أن النور المنبعث من مصباح واحد شع شعاعًا خافتًا على السرير، وقف هوك في العتمة، وعندما خطا أولى خطواته المتسللة اكتشف عقبة. كانت تلك العقبة باب شجرة سلايتلي. فقد تفحصه ووجد أنه لا يغطي كامل الفتحة. ثم غضب حين تبين له، وقد وقع في الشرَك، أنه كان بعيدًا عن متناوله حقًا، وصور له عقله المجنون أن السمة المزعجة لوجه بيتر وجسده قد كبرت على نحو واضح، فهز الباب ورمى نفسه عليه. هل كان عدوه ليهرب بعد ذلك؟

ولكن ما كان هذا؟ رأت عيناه المحمرتان زجاجة دواء بيتر موضوعة على الإفريز في متناول اليد. وعرف على الفور ما هو، وعرف حالًا أن النائم قد صار في قبضته.

كان هوك يحمل معه دومًا، مخافة وقوعه في الأسر حيًا، دواء مخيفًا طحنه بنفسه من كل المركّبات المهلكة التي كانت بحوزته، وغلاها لتصبح سائلًا أصفر يجهل العلم ماهيته، وربما كان أشد السموم الزعاف في الوجود.

أضاف خمس قطرات من هذا الدواء إلى كوب بيتر، وارتجفت يده لكنها رجفة جذل بدلًا من الخجل. وقد تفادى النظر للنائم وهو يفعل ذلك، لكن ليس مخافة أن يضيق صدره بالرأفة، بل ليتفادى

انسكابه. ثم ألقى نظرة طويلة شامتة على ضحيته، واستدار زاحفًا بصعوبة نحو الشجرة. حين خرج إلى الأعلى، كأنما كانت روح الشر تخرج من حفرتها. أمال قبعته الى أقصى زاوية أنيقة، ولف عباءته حوله حاملًا أحد طرفيها إلى الأمام كأنما ليخفي شخصه عن الليل، الذي كان هذا الوقت أشد هزيع فيه حلكة، ومضى مبتعدًا بين الأشجار وهو يهمهم لنفسه همهمة غريبة.

واصل بيتر نومه، والضوء انحنى وانطفأ مخلفًا البيت غارقًا في الظلمة، لكنه ظل نائمًا. لا بد أن الساعة لم تكن أقل من العاشرة، وفقًا للتمساح، حين اعتدل في فراشه فجأة دون أن يتبين ما الذي أيقظه. كان تربيتًا خفيفًا حذرًا على باب شجرته.

كان التربيت خفيفا حذرًا لكنه في ذلك السكون كان مخيفًا. تحسس بيتر خنجره حتى قبضت عليه يده، ثم تحدث.

«من هناك؟».

مر وقت طويل بلا جواب، ثم انبعث صوت القرع ثانية.

«من أنت؟».

لا جواب.

كان يشعر بالإثارة وهو يحب ذلك، ووصل بابه بخطوتين، وعلى عكس باب سلايتلي، كان بابه يملأ فجوته، فلم يستطع رؤية ما خلفه ولا استطاع الطارق أن يراه.

«لن أفتح ما لم تتحدث»، صاح بيتر.

ثم تحدث عندئذ الزائر أخيرًا بصوت جميل شبيه بصلصلة الجرس.

«دعني أدخل يا بيتر».

كانت تنك، فأدخلها سريعًا. وطارت في الداخل بحماس ووجهها أحمر وثوبها ملطخ بالوحل.

«ما الأمر؟».

«أوه. لا يمكنك أن تتخيل»، صاحت وعرضت عليه أن يخمن ثلاثًا.

«أفصحي!»، صاح بها. فأخبرته في جملة واحدة خالية من النحو بطول الشرائط التي يسحبها السحرة من أفواههم، بأسر وندي والفتية.

كان قلب بيتر يقفز للأعلى والأسفل وهو يسمع. صعدت أسيرة على سفينة القراصنة، وندي التي أحبت كل شيء عدا أن تفعل ذلك.

«سأنقذها»، صاح واثبًا لحمل سلاحه. وعندما قفز فكر بفعل شيء يسعدها، يمكنه تناول دوائه.

أحاطت يده بالشراب القاتل.

«كلا!»، صاحت تنكر بل، التي سمعت هوك يهمهم بشيء عن فعلته وهو يمشي في الغابة مسرعًا.

«لم لا؟».

«إنه مسموم».

«مسموم؟ ومن يمكنه فعل ذلك؟».

«هوك».

«لا تكوني سخيفة. كيف بوسع هوك النزول إلى هنا؟».

عبثًا! لم تستطع تنكر بل أن تشرح له، لأنها لم تعرف بأمر السر الخطير لشجرة سلايتلي، ومع ذلك لم تترك كلمات هوك مجالًا للشك، كان الكوب مسمومًا.

«ثم إنني لم أغط في النوم بتاتًا»، أضاف بيتر واثقًا بما يقوله.

حمل الكوب. لا وقت للكلام الآن، إنه وقت الفعل. لكن تنك، في واحدة من حركاتها المضيئة، حالت بين شفتيه والشراب وشربته حتى آخر قطرة فيه.

«عجبًا يا تنك، كيف تجرؤين على شرب دوائي؟».

لكنها لم تجب، فقد أخذت تترنح في الهواء.

«ما خطبك؟»، صاح خائفًا.

«لقد تسممت يا بيتر وسأموت الآن»، قالت بهدوء.

«أوه يا تنك، هل شربته لتنقذيني؟».

«أجل».

«لكن لماذا يا تنك؟».

كان جناحاها بالكاد قادرين على حملها، لكنها حطت على كتفه

ومنحت ذقنه عضة حب، ردًا على سؤاله، وهمست في أذنه «أيها الأحمق السخيف»، ثم مشت نحو غرفتها، واستلقت على فراشها.

ملأ رأسه الجدران الأربعة لغرفتها الصغيرة حين جثا قربها في حزن، كان نورها يزداد خفوتًا كل لحظة، وعرف أنها لن تعيش ثانية إذا انطفأ نورها. أحبت دموعه كثيرًا حتى أنها وضعت أصبعها الجميل وجعلتها تسيل فوقه.

كان صوتها خفيضًا جدًا حتى إنه لم يفهم بادئ الأمر ما قالته، ثم فهم، كانت تقول إنها تظن أنها تستعيد عافيتها إن آمن الأطفال بالجنيات.

رفع بيتر ذراعيه، فلم يكن في البيت أي طفل، وكان الوقت ليلًا، لكنه خاطب كل أولئك الذين يحلمون بنفرلاند، الذين كانوا لذلك أقرب إليه مما تتخيلون، أولاد وفتيات في مناماتهم، وأطفال الهنود الحمر العراة في سلالهم المتدلية من الأشجار.

«هل تؤمنون؟»، صاح.

اعتدلت تنك في فراشها برشاقة لتسمع مصيرها.

تخيلت أنها سمعت إجابات مؤكدة، ثم لم تعد واثقة.

«ما رأيك؟»، سألت بيتر.

فصاح بهم «إن كنتم تؤمنون، صفقوا بأيديكم، لا تتركوا تنك تموت».

صفق الكثيرون.

لم يصفق بعضهم.

أطلق بضعة أشرار أصوات استهجان.

توقف التصفيق فجأة، كأن عددًا لا يحصى من الأمهات هرعن إلى غرف أطفالهن ليرين ما الذي كان يحدث، لكن تنك نجت. غدا صوتها أقوى في البدء، ثم قفزت من فراشها، ثم صارت تدور في الغرفة أكثر مرحًا ونشاطًا من ذي قبل، ولم تفكر مطلقًا بشكر أولئك الذين آمنوا، لكنها تود أن تنقض على من سخروا.

«والآن لننطلق لإنقاذ وندي».

كان القمر يمتطي سماء غائمة حين خرج بيتر من شجرته، واضعاً أسلحته في حزامه، وحاملًا أسلحة صغيرة أخرى، للانطلاق إلى مهمته المحفوفة بالخطر. لم يكن ليختار ليلة كهذه، فقد أمل أن يطير، وأن يظل قريبًا من الأرض فلا يغيب شيء عن عينه، ولكن ذلك النور المتقطع واضطراره للطيران المنخفض يعني سحب ظله على الأشجار، وسينجم عن إزعاج الطيور تنبيه الخصم اليقظ بأنه نهض من الفراش.

ندم الآن لأنه سمّى طيور الجزيرة أسماء غريبة فصارت متوحشة ويصعب الاقتراب منها.

لم يكن لديه مسلك آخر سوى المضي إلى الأمام على طريقة الهنود الحمر، التي كان خبيرًا بها لحسن الحظ، لكن في أي اتجاه، لأنه لم يكن متأكدًا أن الأطفال أخذوا إلى السفينة. محا هطول الثلج الخفيف آثار

الاقدام، وغزا الجزيرة صمت مطبق، كأنما وقفت الطبيعة صامتة خوفًا من مذبحة جديدة. لقد علّم الأطفال شيئًا من تقاليد الغابة كان قد تعلمها هو نفسه من تايغر ليلي وتنكر بل، وعرف أنهم لن ينسوها في ساعة الخطر. فسلايتلي سيضع وسمًا على الأشجار مثلًا، وكيرلي سيسقط البذور، وستترك وندي منديلها في مكان واضح، لكنه كان بحاجة للصباح للعثور على هذه العلامات، ولم يستطع الانتظار، فقد دعاه العالم العلوي، لكنه لن يساعده.

مر به التمساح، ولا شيء حي آخر، ولا صوت ولا حركة، ومع ذلك عرف جيدًا أن الموت المفاجئ قد يكون عند الشجرة التالية، أو يطارده من الخلف.

أقسم هذا القسم الرهيب «إما هوك وإما انا هذه المرة».

زحف إلى الأمام مثل أفعى، وانتصب ثانية، وانطلق مسرعًا في فراغ لعب فيه ضوء القمر، واضعًا أحد أصابعه على شفته وخنجره على أهبة الاستعداد. كان سعيدًا للغاية.

الفصل الرابع عشر
سفينة القراصنة

أضاء نور أخضر مائل على خليج كيد، القريب من فم نهر القراصنة، مكان السجن على سفينة جولي روجر، وقد رست في المياه الخفيضة، تلك السفينة الكريهة بغيضة المظهر، وكل دعامة فيها مقيتة مثل أرض غرست بريش مختلط. كانت آكلة لحوم البشر في البحار، ولم تحتج إلا نادرًا إلى تلك الرقابة، لأنها عامت حصينة بفضل اسمها المرعب.

كانت ملفوفة ببطانية الليل، ولم يكن لصوت فيها أن يصل إلى الشاطئ. وقد انبعثت أصوات قليلة كريهة، عدا صوت أزيز آلة الخياطة التي جلس إليها سمي، كادحًا ومحبًا للمساعدة، المسكين سمي. لست أدري لم كان مثيرًا للشفقة كثيرًا، إن لم يكن ذاك بسبب أنه يجهل حقيقته على نحو يثير الشفقة، حتى الرجال الأقوياء كانوا يشيحون أبصارهم عنه بسرعة، وقد فجر نافورة دموع هوك أكثر من مرة في أمسيات الصيف، وجعلها تنهمر. لهذا السبب، ولأسباب أخرى، كان سمي يجهل حقيقته فعلًا.

مال بضعة قراصنة على سور السفينة يشربون في حلكة الليل، وجلس الآخرون على البراميل يلعبون الورق والنرد، والأربعة المنهكون الذين حملوا المنزل الصغير استلقوا بهدوء على سطح السفينة، حيث تدحرجوا بمهارة حتى في نومهم على هذا الجانب أو ذاك بعيدًا عن متناول هوك، مخافة أن يخدشهم في مروره دون تفكير.

مشى هوك على سطح السفينة غارقًا في التفكير، يا له من رجل لا يسبر غوره. كانت ساعة نصره على بيتر، وقد أزيح بيتر من دربه الى الأبد، وكل الفتية الآخرون كانوا في السجن، على وشك أن يمشوا فوق اللاطة. وكان ذاك أبغض أفعاله منذ الأيام التي جعل فيها باربكيو يجثو لتقبيل قدميه، عارفًا كما نعرف نحن كم يكون قلب الرجل فارغًا، فهل نستغرب أنه يذرع سطح السفينة بقلق، مزهوًّا بغرور نجاحه؟

لكن لم يكن في مشيته، التي تناسقت مع الغليان في عقله الشرير، أي جذل. لقد كان حزن هوك واضحًا.

كثيرًا ما يكون هكذا حين يختلي بنفسه على سطح السفينة في سكون الليل، وذلك لأنه كان شديد الوحدة. لم يشعر هذا الرجل المخيف أبدًا بوحدة أكثر مما يشعر به حين يكون محاطًا برجاله، فقد كانوا كلهم أدنى مرتبة منه اجتماعيًا.

لم يكن هوك اسمه الحقيقي. ولو كشفنا هويته الحقيقية لاشتعلت البلاد حتى يومنا هذا، ولكن لا بد أن أولئك الذين يقرؤون ما بين

السطور قد خمنوا من يكون مسبقًا، فقد كان ارتاد مدرسة حكومية شهيرة، وما زالت تقاليدها متشبثة به مثل ثيابه، المعتنى بها كثيرًا. وهكذا كان من المهين له الآن أن يصعد السفينة بالثياب نفسها التي قاتل بها، وما زال ملتزمًا في مشيته بمشية المدرسة المميزة. لكنه علاوة على ذلك واصل حبه للخلق الحسن.

الخلق الحسن! كان يعرف أن هذا هو المهم حقًا، مهما بلغ حد ابتذاله.

سمع بعيدًا عنه صرير الأبواب الصدئة، وعبرها جاء وقع خطى رتيب مثل الطرق بمطرقة في الليل، حين يعجز المرء عن النوم. «هل كنت حسن الخلق اليوم؟»، كان هذا سؤالهم الدائم.

«السمعة، السمعة، تلك الحلية اللماعة، إنها لي»، صاح.

«هل ثمة شيء بعينه من الخلق الحسن تُعرف به؟»، أجاب النقر من مدرسته.

«أنا الرجل الوحيد الذي يخشاه باربكيو، وفلنت نفسه يخاف باربكيو»، أصر.

«ومن أي عائلة هما باربكيو وفلنت؟»، جاء الجواب الحاسم.

أما الفكرة الأكثر إزعاجًا فتقول، أليس من سوء الخلق التفكير بالخلق الحسن؟

كانت هذه الفكرة تشغل فكره وقلبه، كانت مخلبًا ينغرس في داخله أحدّ من المخلب المعدني، ولأنها أنهكته، فقد أخذ عرقه يقطر

أسفل ملامحه الشاحبة ووخط سترته. كثيرًا ما مرر كمه على وجهه، لكن ما من شيء يوقف هذا الوشل.

آه، إن هوك في وضع لا يحسد عليه.

عندها راوده حدس بهلاكه القريب. بدا كأن قسم پيتر الرهيب قد اعتلى السفينة، وغمرت هوك رغبة كئيبة بإلقاء خطاب موته، مخافة ألا تتسنى له الفرصة.

«لو كان لهوك طموح أقل لكان أفضل له»، صاح. كانت أحلك ساعاته حين يشير إلى نفسه بضمير الغائب.

«لا أطفال صغار يحبوني».

من الغريب أنه يفكر بهذا، وهو ما لم يزعجه قبلًا. ربما جعلته آلة الخياطة يفكر بذلك، همهم لنفسه طويلًا، محدقًا بسمي، الذي كان يغني بهدوء مؤمنًا أن كل الأطفال يخشونه.

يخشونه! يخشون سمي! لم يكن ثمة طفل على متن السفينة تلك الليلة لم يقع في حبه. قال لهم أمورًا مرعبة وضربهم براحة يده، لأنه لم يستطع الضرب بقبضته، لكنهم تعلقوا به أكثر، وجرب مايكل وضع نظاراته.

وقالوا لسمي المسكين أنهم يرونه محبوبًا! تاق هوك لفعل ذلك، لكنه كان قاسيًا جدًا. وبدلًا من ذلك، دوّر هذا اللغز في عقله، لماذا يرون سمي محبوبًا؟ وفكر بالمسألة مثل الخسيس الشرير الذي كانه دومًا. إن كان سمي محبوبًا، فما الذي جعله كذلك؟ وفجأة خطر له

جواب رهيب، الخلق الحسن؟

هل كان لعريف الملاحين قلب طيب، وهذا أفضل الأخلاق، دون أن يدري؟

وتذكر أن على المرء إثبات جهله بأن له قلبًا طيبًا، قبل أن يكون مؤهلًا ليصبح أبًا.

رفع يده المعدنية فوق رأس سمي مطلقًا صرخة غضب. لكنه لم يمزقه، فما حبسه عن ذلك كان هذه الفكرة التي تبادرت له:

«كيف سيكون الأمر إن آذيت رجلًا لأن له خلقًا حسنًا؟».

«هذا خلق سيء!».

كان هوك التعس واهنًا بقدر ما كان رطبًا، وسقط للخلف مثل زهرة مقطوعة.

سرعان ما تخلى رجاله عن انضباطهم، حين ظنوه شارد الذهن لبعض الوقت، وأخذوا يرقصون رقصًا معربدًا، ما جعله يقف على قدميه فورًا، وقد زالت كل آثار الضعف البشري، كأنما صب عليه دلو ماء.

صاح بهم: «اهدؤوا أيها التافهون»، صاح، «وإلا رميتكم بمرساة»، وسرعان ما تلاشى الضجيج، «هل كل الأطفال مسلسلون، فلا يستطيعون الطيران؟».

«أجل، أجل».

«فهاتوهم إلى الأعلى إذًا».

سُحب الأسرى المتعبون من الحبس، كلهم ما عدا وندي، وانتظموا في صف أمامه. لم ينتبه هوك لحضورهم لبعض الوقت، فتكاسل مرتاحًا مغنيًا، بلا لحن، مقتطفات من أغنية وقحة، ضاربًا حزمة أوراق بأصابعه. بين الحين والآخر كان لهب سيجاره يمنح وجهه شيئًا من اللون.

«والآن أيها الرفاق»، قال بنشاط، «سيمشي ستة منكم على اللاطة الليلة، لكن لدي مكانًا لغلاميْ سفينة، فمن منكم يود أن يكون كذلك؟».

«لا تضايقوه بلا داع»، كانت تعليمات وندي في الحبس، لذا تقدم توتلز بتهذيب. كره توتلز فكرة العمل تحت إمرة رجل كهذا، لكن حدسًا أخبره أنه سيكون وقحًا في أن ينحي باللائمة على شخص غائب، ورغم أنه كان ولدًا سخيفًا نوعًا ما، لكنه عرف أن الأم وحدها من ترغب أن تكون المصد، وقد عرف كل الأطفال ذلك عن الأمهات، وكرهوهن لذلك، لكنهم استغلوه على الفور.

فشرح توتلز بوقاحة: «أنت ترى يا سيدي لا أظن أن أمي تريد لي أن أكون قرصانًا، فهل تريد لك أمك ذلك يا سلايتلي؟».

وغمز لسلايتلي، الذي قال باكيًا «لا أظن ذلك»، كأنه تمنى لو كانت الأمور عكس ذلك، «هل تريد أمكما ذلك لكما أيها التوءمان؟».

«لا أظن ذلك»، قال التوءم الأول الذكي بقدر الآخرين، «نيبز، هل تريد...».

«كفوا عن هذا الهذر»، زمجر هوك، وتراجع المتحدثون. ثم قال

مخاطبًا جون «أنت يا ولد، تبدو كأن فيك شيئًا من الشجاعة، هل أردت يومًا أن تكون قرصانًا يا عزيزي؟».

كان جون قد انتابته هذه الرغبة أثناء كتابته لدرس الرياضيات، وفوجئ باختيار هوك له، «فكرت مرة بتسمية نفسي جاك ذو اليد الحمراء»، قال بحسم.

«وهذا اسم جيد أيضًا، سنسميك هكذا، يا رفيق إن انضممت إلينا».

«ما رأيك يا مايكل؟»، سأل جون.

«وماذا ستسموني إن انضممت؟»، سأل مايكل.

«جو ذو اللحية السوداء».

فأعجب هذا مايكل للغاية، «ما رأيك يا جون؟»، أراد لجون أن يقرر وجون أراد منه أن يقرر.

«هل سنكون رعايا مخلصين للملك؟»، سأل جون.

وجاء الجواب من بين أسنان هوك: «عليك أن تهتف «ليسقط الملك»».

ربما لم يكن جون يحسن التصرف، لكنه تألق الآن.

«فأنا أرفض إذًا»، صاح ضاربًا البرميل أمام هوك.

«وأنا أرفض»، صاح مايكل.

«النصر لبريطانيا، لتعش بريطانيا!»، زعق كيرلي.

سد القراصنة الحانقون أفواههم، وزمجر هوك، «لقد حكم هذا عليكم بالموت. هاتوا أمهم، وأعدوا اللاطة».

لم يكونوا سوى أولاد، وامتقع لونهم حين رأوا جكس وتشيكو يعدون اللاطة القاتلة، لكنهم حاولوا إظهار الشجاعة حين جيء بوندي.

لا يمكن لأي من كلماتي أن تصف لكم كم كرهت وندي هؤلاء القراصنة. كان الفتية يشعرون بشيء من الانجذاب لهتاف القراصنة. أما وندي فلم تر سوى أن السفينة لم تفرك منذ سنوات، ولم يكن في الزجاج القذر أي كوة ليس بوسعك الكتابة عليها بأصابعك، «خنازير قذرة»، وقد كتبت هذا على عدد منها. لكنها لم تعد تفكر إلا بالفتية حين تحلقوا حولها.

«والآن يا جميلتي»، قال هوك كأنه يتحدث عن تناول شراب، «سترين صغارك يمشون على اللاطة».

ورغم أنه كان رجلًا حسن المظهر إلا أن قوة حديثه قد أفسدت طوقه المكشكش، وانتبه فجأة أنها تنظر إليه، وحاول إخفاءه بإيماءة سريعة، لكنه تأخر كثيرًا.

«هل سيموتون؟»، سألت وندي بنظرة غضب مرعبة كادت تفقده وعيه.

«سيفعلون»، زمجر. «اصمتوا جميعًا»، صاح شامتًا، «لنسمع كلمات الأم الأخيرة لصغارها».

كانت وندي عظيمة في هذه اللحظة. «إليكم كلماتي الأخيرة يا فتيتي الأعزاء»، قالت بحزم، «إن لدي رسالة لكم من أمهاتكم الحقيقيات، يقلن فيها نأمل لأولادنا أن يموتوا مثل رجال إنجليز محترمين».

حتى القراصنة كانوا مندهشين، وهتف توتلز بجنون، «سأفعل ما تتمناه أمي، فماذا أنت فاعل يا نيبز؟».

«ما تتمناه أمي، وماذا أنتما فاعلان ايها التوءمان؟».

«ما تتمناه أمنا، وأنت يا جون ماذا....؟».

لكن هوك استعاد صوته ثانية.

«قيدوها»، صرخ.

كان سمي هو من قيدها إلى الصارية. «انظري إليّ يا عزيزتي»، ثم همس، «سأنقذك إن وعدت أن تكوني أمي».

لكنها لم تكن لتقطع وعدًا كهذا حتى لسمي. «أفضّل ألا يكون لي أولاد على الإطلاق»، قالت بازدراء.

كان من المحزن ألا أحد من الفتية كان ينظر حين قيدها سمي إلى الصارية، فقد كانت عيون الجميع معلقة باللاطة، على ذلك المشى القصير الأخير الذي عليهم أن يمشوه. لم يعد بوسعهم أن يتمنوا أن يمشوه برجولة، فقد فرت منهم القدرة على التفكير، واكتفوا بالتحديق والارتعاش.

ابتسم لهم هوك وهو يصر أسنانه، وتقدم خطوة نحو وندي،

وكان ينوي إدارة وجهها لترى الفتية يمشون على اللاطة واحدًا تلو الآخر، لكنه لم يصلها أبدًا، ولم يسمع صرخة الخوف التي تمنى أن تصدر عنها، بل سمع شيئًا آخر.

كانت تكّات التمساح الرهيبة التي سمعوها جميعًا، القراصنة والفتية ووندي. واستدار كل رأس باتجاه واحد على الفور، ليس إلى الماء حيث ظهر الصوت، بل نحو هوك. عرفوا كلهم أن ما سيحدث أقلقه وحده، فتحولوا إلى متفرجين بعد أن كانوا ممثلين.

كان من المخيف جدًا رؤية التغيير الذي طرأ عليه، فقد بدا كأنه ربط من كل مفصل في جسده، إذ سقط في كومة صغيرة.

اقترب الصوت بثبات، وقبله خطرت في ذهنه فكرة مرعبة، «إن التمساح على وشك الصعود إلى السفينة».

حتى المخلب المعدني ظل خاملًا، كأنه يعرف أنه ليس جزءًا مهمًا مما تريده القوة المهاجمة. كان أي رجل سيستلقي ويغمض عينيه، بعد أن ترك وحيدًا حيث سقط. لكن عقل هوك الجبار كان ما زال يعمل. وبإرشاد منه زحف على ركبتيه على طول السطح بعيدًا عن الصوت بقدر استطاعته. أخلى القراصنة الدرب له بإجلال، ولم يتحدث ثانية حتى صار مقابلًا لسياج السفينة.

«خبئوني»، صاح بصوت أجش.

فتحلقوا حوله، وكل العيون تتفادى النظر إلى الشيء الذي كان يصعد السفينة، ولم يفكروا بمحاربته، فقد كان القدر.

حين توارى هوك عن أعينهم حرر الفضول أطراف الفتية، فذهبوا إلى جانب السفينة لرؤية التمساح يتسلقها، ثم وجدوا أعجب مفاجاة في ليلة الليالي. فلم يكن التمساح من جاء لنجدتهم، بل كان بيتر.

أمرهم ألا يطلقوا صرخة إعجاب قد تثير الريبة، ثم واصل التكتكة.

الفصل الخامس عشر
إما هوك، وإما أنا هذه المرة

تحدث أمور غريبة لكل منا في درب الحياة دون أن ندرك لبعض الوقت أنها حدثت. ويبدو هذا مثل أن نكتشف فجأة، مثلًا، أننا أصبنا بالصمم في أذن واحدة لوقت نجهله، ولكن لنقل إنها لنصف ساعة. وها قد حدثت تجربة مماثلة لبيتر الليلة. حين رأيناه آخر مرة كان يتسلل عبر الجزيرة وأحد أصابعه على شفتيه وخنجره على أهبة الاستعداد. لقد رأى التمساح يمر دون الانتباه لأي شيء خاص فيه، لكنه تذكر بعد ذلك أنه لا يتكتك، فظنه إنقليسًا في بادئ الأمر، ثم عرف بعدها أن الساعة قد تعطلت.

فكر بيتر كيف يستغل هذه الكارثة لصالحه، متجاهلًا مشاعر الصديق الذي سُلب منه أقرب صحبه على حين غرة هكذا. وعزم بيتر على أن يتكتك فتصدق الكائنات المفترسة أنه التمساح فتسمح له بالمرور دون مساسه. تكتك بمهارة، لكن حدث ما لم يتوقعه. فقد كان التمساح من بين أولئك الذين سمعوا الصوت، وتبعه. وسواء أكان ذاك بهدف استعادة ما خسره، أم بوصفه صديقًا مؤمنًا أنه ما

زال يتكتك هو نفسه، فلن نتمكن من معرفة ذلك أبدًا، لأنه كان كائنًا غبيًا، مثل كل عبيد الأوهام.

وصل بيتر الشاطئ دون عائق، وتقدم للأمام. كانت ساقاه تتحسسان الماء كأنهما لا تدركان أنهما دخلتا عنصرًا جديدًا. هذه هي طريقة تنقّل معظم الحيوانات بين الماء واليابسة، لكن لا أحد من البشر الذين أعرفهم يفعل ذلك. لم يكن في ذهنه سوى فكرة واحدة وهو يسبح «إما هوك وإما أنا هذه المرة». كان يتكتك لوقت طويل وواصل ذلك دون الانتباه لفعله. ولو أنه عرف لتوقف، لأن فكرة الصعود بمساعدة التكات، لم تخطر له، رغم كونها فكرة عبقرية.

في المقابل، ظن أنه مر بجانب التمساح صامتًا مثل فأر، ودهش لرؤية القراصنة يجبنون منه، وهوك وسطهم ذليلًا كأنه سمع التمساح.

التمساح! لم يتذكر بيتر إلا بعد أن سمع التكتكة، وظن في البدء أن الصوت ينبعث من التمساح، فنظر خلفه سريعًا، ثم أدرك أنه كان يفعلها بنفسه، وفهم الأمر في طرفة عين. «يا لذكائي، قال في نفسه حالًا»، وأشار للفتية ألا ينفجروا بالتصفيق.

في تلك اللحظة خرج الرئيس البحري إد تينيت من مقدم السفينة وظهر على السطح.

والأن أيها القراء، وقّتوا ما يحدث بساعاتكم. هجم بيتر بقوة وضراوة، ووضع جون يديه على فم القرصان ذي المصير المشؤوم

ليكتم صرخة الموت. فسقط للأمام، وأمسك به أربعة من الأولاد ليمنعوا صوت الوقوع، وأعطاهم بيتر العلامة.

وألقي بالمحمول من فوق السفينة، وارتفع صوت رشاش الماء ثم ساد الصمت، كم استغرق الأمر؟

«واحد!»، (بدأ سلايتلي العد).

وسرعان ما اختفى بيتر، الذي كان يتسلل خلسة، في المقصورة، إذ كان بضعة قراصنة يستجمعون شجاعتهم لتفقد المكان. كان بوسعهم سماع أنفاس بعضهم اللاهثة، ما كشف لهم غياب الصوت الأكثر رعبًا.

«لقد رحل أيها القبطان»، قال سمي ماسحًا نظارته، «وكل شيء هادئ ثانية».

أخرج هوك رأسه من طوقه المكشكش ببطء، وأرهف سمعه ليستطيع سماع صدى التكة. لم يكن ثمة صوت، فنهض بنفسه وانتصب مستقيمًا.

«إذًا فلنذهب إلى اللاطة جوني»، قال بغضب وفي نفسه كراهية للفتية أكثر من ذي قبل، لأنهم راوه منبطحًا. ثم أخذ يغني الأغنية اللئيمة:

مرحى، مرحى للاطة
ستمشون عليها،
حتى تنزل فتنزلوا معها

ورقص على لاطة متخيلة ليشيع الخوف أكثر في نفوس أسراه، مع أن ذلك سيصاحبه فقدان للهيبة حتمًا، شامتًا بهم وهو يرقص. ثم صرخ حين انتهى «هل ترغبون بجلدة سوط قبل أن تمشوا على اللاطة؟».

وعند هذا جثوا كلهم على ركبهم، «لا، لا»، صاحوا بتضرع حتى ابتسم كل القراصنة.

«اجلب السوط يا جكس. إنه في المقصورة»، قال هوك.

المقصورة! كان بيتر في المقصورة! تبادل الأطفال النظرات.

«سمعًا وطاعة»، قال جكس بلؤم، ومشى نحو المقصورة. تبعوه بأنظارهم وبالكاد انتبهوا إلى أن هوك واصل غناءه وأن رجاله انضموا إليه:

مرحى مرحى للسوط اللاسع
أذياله تسعة كما تعرف
وحين تلسع ظهرك..

لن يُعرف ما كان السطر الأخير، لأن الأغنية سكتت فجأة بصرير قادم من المقصورة. ملأ الصوت السفينة واختفى، ثم سُمع صوت زعيق فهمه الفتية جيدًا، لكنه كان صوتًا مخيفًا بالنسبة إلى القراصنة أكثر من كونه صريرًا.

«ماذا كان ذاك؟»، صاح هوك.

«اثنان»، قال سلايتلي بوقار.

تردد الإيطالي تشيكو للحظة ثم هرع نحو المقصورة، وخرج منهكًا.

«ما خطب بل جكس يا رجل؟»، فحّ هوك متعاليًا عليه.

«خطبه أنه مات مطعونًا»، أجاب تشيكو بصوت مكتوم.

«بل جكس مات!»، صاح القراصنة المندهشون.

«المقصورة مظلمة مثل حفرة»، قال تشكيو وهو يرتعش، «لكن ثمة ما هو رهيب في الداخل، إنه الشيء الذي سمعتم زعيقه».

رأى هوك جذل الفتية ونظرات القراصنة الذليلة.

فقال بصوت حاد: «عد يا تشيكو واجلب لي ذاك الذي الشيء الذي يصيح كالديك».

جبن تشيكو، أشجع الشجعان، أمام قائده باكيًا «كلا، كلا»، لكن هوك أخذ يشحذ مخلبه.

«هل قلت إنك ذاهب يا تشيكو؟»، قال مستمتعًا.

ذهب تشيكو مادًا ذراعيه أولًا بيأس. كفوا عن الغناء وأصغى الجميع، وانبثقت صرخة موت وزعقة مرة أخرى.

لم يتحدث أحد سوى سلايتلي الذي قال: «ثلاثة».

حث هوك رجاله بإيماءة، «يا للهول ولعنات الجحيم! ومن سيجلب لي ذلك الذي يصيح كالديك؟».

«انتظر حتى يعود تشيكو»، قال ستاركي، ووافقه الآخرون.

«أظنني سمعتك تتطوع يا ستاركي»، قال هوك شاحذًا خطافه ثانية.

«كلا، لتقتلني الصاعقة»، قال ستاركي.

«يظن خطافي أنك فعلت»، قال هوك مشيرًا إليه، «أتساءل إن كان من الصواب المزاح مع الخطاف يا ستاركي؟».

«أفضل الموت شنقًا قبل الذهاب هناك»، أجاب ستاركي بعناد، وتلقى الدعم ثانية من الطاقم.

«هل هذا تمرد؟»، سأل هوك بسرور أكبر من ذي قبل، «ستاركي يتمرد على القبطان».

«الرحمة أيها القبطان»، همهم ستاركي وهو يختلج.

«صافحني يا ستاركي»، قال هوك مقدمًا خطافه.

بحث ستاركي عن العون، لكن الجميع تخلوا عنه، وكلما تراجع هو تقدم هوك وقد ظهرت الشعلة الحمراء في عينيه. قفز القرصان بصرخة يأس من فوق المدفع لونغ توم، وألقى بنفسه إلى البحر.

«أربعة»، قال سلايتلي.

ثم سأل هوك بمكر: «والآن، هل لدى أي رجل منكم اعتراض؟»، ثم تابع وهو يحمل قنديلًا ويلوح بمخلبه بحركة متوعدة، «سأجلب ذلك الشيء بنفسي»، قال وأسرع نحو المقصورة.

«خمسة».كم تاق سلايتلي لقولها. وبلل شفتيه ليكون مستعدًا، لكن هوك خرج مرتعدًا دون قنديله.

قال وقد اعتراه شيء من القلق: «أطفأ المصباحَ شيء ما».

«شيء ما!»، ردد مولنز.

«ماذا عن تشيكو؟»، سأل نودلر.

«إنه ميت مثل جكس»، قال هوك باقتضاب.

لم تعجبهم رغبته في العودة إلى المقصورة، وانطلقت الأصوات المعترضة ثانية. كان كل القراصنة متطيرين، وصاح كوكسن «يقال إن العلامة الأكيدة على أن السفينة ملعونة حين يكون على متنها واحد يزيد عن العدد المحصى».

غمغم مولنز «سمعت أنه يصعد سفينة القراصنة آخِرًا، هل له ذيل أيها القبطان؟».

قال آخر ناظرًا بلؤم الى هوك «يقال إنه حين يأتي، فإنه يشبه أكثر الرجال لؤمًا على السفينة».

«هل له خطاف أيها القبطان؟»، قال كوكسن بوقاحة، وصاح واحدهم تلو الآخر «السفينة ملعونة»، غير أن الصغار لم يستطيعوا كبح صرخة ابتهاج لسماع هذا. كاد هوك أن ينسى أمر أسراه، لكنه مشى حولهم وقد أشرق وجهه ثانية.

صاح بطاقمه «أيها الرجال، إليكم فكرة. افتحوا باب المقصورة وادفعوهم داخلها، دعوهم يقتلون الشيء دفاعًا عن حياتهم،

فإن قتلوه سيكون هذا في صالحنا، وإن قتلهم فلن نخسر شيئًا».

أعجب رجال هوك به للمرة الأخيرة، وانصاعوا لأمره بإخلاص. دُفع الفتية، الذين تصنعوا المقاومة، إلى داخل المقصورة وأغلق الباب عليهم.

«والآن أنصتوا»، صاح هوك. فأصغى الجميع، لكن أحدًا لم يجرؤ على مواجهة الباب. بلى، فعل واحد فحسب، كان ذاك وندي التي قيدت إلى الصارية طوال هذا الوقت، ولم تكن تنظر بل كانت تنتظر ظهور بيتر مجددًا.

لم تنتظر طويلًا، فقد عثر في المقصورة على الشيء الذي ذهب للبحث عنه؛ أي المفتاح الذي سيحرر الفتية من قيودهم، وقد تقدموا كلهم مدججين بأسلحة مما استطاعوا العثور عليه. أمرهم بيتر في البدء أن يختبئوا، ثم قطع قيود وندي، ولم يكن من شيء عندها أسهل عليهم من الطيران كلهم معًا، لكن أمرًا واحدًا حال دون ذلك، القسم «إما هوك وإما أنا هذه المرة». لذا همس لوندي حين حل وثاقها لها أن تختبئ مع الآخرين، وأخذ هو مكانها عند الصارية، وقد التف بعباءتها فيظهر لهم أنه هي، ثم أخذ نفسا كبيرًا وزعق.

كان ذلك صوتًا بالنسبة للقراصنة يبين أن كل الفتية ذبحوا في المقصورة. فأصيبوا بالهلع، وحاول هوك تهدئتهم، لكن رجالًا مثل الذين صنعهم أبدوا له أنيابهم، وعرف أنه إن أشاح بنظره عنهم فسيثبون عليه.

«يا رجال»، قال وهو مستعد لتملقهم أو طعنهم إن دعت

الحاجة، لكنه لم يفقد شجاعته للحظة، «لقد عرفت الأمر، إن جونا[1] على السفينة».

«هذا صحيح، إنه رجل له خطاف»، صاحوا.

«كلا يا رجال، إنها فتاة. لم يكن الحظ يومًا حليف سفينة قراصنة على متنها امرأة، ستكون السفينة على ما يرام حين ترحل».

تذكر بعضهم أن هذا قاله القبطان فلنت، فقالوا بارتياب «إن الأمر يستحق المحاولة».

«ألقوا الفتاة من السفينة»، صاح هوك فاندفعوا إلى الشخص الملتف بالعباءة.

«ليس لأحد أن ينقذك الآن يا آنسة»، فحّ مولنز بصوت أجش.

«واحد فقط»، أجاب الشخص.

«من هو؟».

«بيتر بان المنتقم!» جاءهم الرد المخيف. وألقى بيتر بعباءته وهو يتحدث، ثم عرفوا جميعًا أنه هو من كان يقتلهم في المقصورة، وحاول هوك الحديث مرتين وفشل في المرتين. أظن أن قلبه القوي انخلع في تلك اللحظة الرهيبة.

صاح أخيرًا «علقوه من صدره»، لكن دون اقتناع.

(١) شيء أو شخص يجلب الحظ السيء. يلوم البحارة جونا على عاصفة ألمت بهم، فيلقون به من السفينة آملين أن يصلوا بسفينتهم إلى بر الأمان. وهنا يظن أن وندي هي السبب في انبثاق صيحات الديك، فوجود امرأة على متن سفينة قراصنة نذير شؤم.

«انخفضوا يا فتية واهجموا عليهم»، جلجل صوت بيتر. وفي لحظة أخرى كان ارتطام الأسلحة يتردد في أرجاء السفينة. لو ظل القراصنة معًا لكان نصرهم مؤكدًا، لكن اندلاع القتال جاء في لحظة اضطراب، فركضوا هنا وهناك ضاربين بقوة، وكل واحد يظن نفسه الناجي الأخير من الطاقم. لو أنهم قاتلوا رجلًا لرجل لكانوا أقوى، لكن قتالهم لم يكن إلا دفاعًا، ما جعل الفتية يصطادونهم أزواجًا ويختارون طرائدهم. قفز بعض اللئام إلى البحر، واختبأ آخرون في الزوايا المظلمة حيث عثر عليهم سلايتلي، الذي لم يحارب، لكنه جرى في الأنحاء حاملًا قنديلًا يرفعه في وجوههم، فيغدون نصف عميان ويسقطون فرائس سهلة للسيوف المجلجلة للفتية الآخرين. لم يسمع أي صوت صغير عدا اشتباك الأسلحة وصرخة عرضية أو رشة ماء، وسلايتلي مستمر في عدّه؛ خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر.

أظن أن الجميع انتهى أمرهم حين تجمع حشد من الفتية المتوحشين حول هوك، الذي بدا أن له روحًا مسحورة، إذ أبقاهم في وضع حرج في دائرة النار تلك. كانوا قد انتهوا من رجاله، لكن هذا الرجل بدا مناسبًا لهم كلهم، فضيقوا عليه أكثر فأكثر ووسّع هو المساحة أكثر فأكثر. كان قد رفع ولدًا واحدًا بخطافه جاعلًا منه ترسًا، حين وثب ولد آخر، كان قد غرس سيفه في مولنز، إلى دائرة القتال.

«ألقوا أسلحتكم يا أولاد»، صاح القادم الجديد، «اتركوا هذا الرجل لي».

فوجد هوك نفسه فجأة وجهًا لوجه مع بيتر، وقد تراجع الآخرون وتحلقوا حولهما.

تبادل العدوّان النظر لوقت طويل. كان هوك يرتعش قليلًا، وبيتر تعلو وجهه ابتسامة غريبة.

«إذًا يا پان»، قال هوك أخيرًا، «هذا كله من فعلك».

«بلى يا جيمس هوك»، جاء الجواب القوي، «كله من فعلي».

«استعد أيها الشاب المغرور الوقح لتلقى مصيرك»، قال هوك.

«خذ هذه أيها الرجل الداكن اللئيم»، أجاب بيتر.

وشرعا في القتال دون مزيد من الكلمات، ولم يكن النصر حليفًا لأي نصل منهما لوهلة. كان بيتر مقاتلًا بارعًا بالسيف وتفادى الضربات بسرعة مدهشة. كان بين الفينة والأخرى يُتبع خدعته بطعنة تتفوق على دفاع خصمه، لكن قصر يده لم تجده نفعًا ولم يتمكن من غرس الفولاذ في مكانه. أجبره هوك الذي كان يقلّ عنه ذكاء بقليل، لكنه يفتقر إلى مهارة الرسغ، على التراجع تحت ثقل ضرباته، آملًا فجأة أن ينتهي هذا بطعنة جيدة، علمه إياها قبل زمن طويل باربكيو في ريو. لكنه دهش حين وجد أن طعنته انحرفت جانبًا مرة بعد أخرى، ثم سعى للفراغ من هذا وتسديد الضربة القاضية بخطافه المعدني، الذين كان يمزق الهواء كل هذا الوقت. لكن بيتر تجنبه وضرب بقوة، وطعنه في صدره. شعر بالإهانة حين رأى دمه، الذي تذكرون لونه، فسقط السيف من يد هوك وكان تحت رحمة بيتر العجيب.

«الآن!»، هتف كل الفتية. لكن خصمه بيتر أومى بإيماءة رائعة ليحمل سيفه. فعل هوك ذاك سريعًا غير أنه شعر بالمرارة لأن بيتر كان يظهر خلقًا حسنًا.

وعندئذ رأى أن من العار قتاله، لكن استحوذت عليه ريبة أكثر خبثًا.

«من أنت وما أنت يا پان؟»، صاح بصوت أجش.

«أنا الشباب، وأنا المرح»، أجاب بيتر مجازفًا، «أنا طائر فقس من بيضته».

كان هذا هراء طبعًا، لكنه كان برهانًا لهوك التعس أن بيتر لم يعرف أدنى معرفة من كان، أو ما كان، وهذا قمة الخلق الحسن.

«لنستأنف القتال»، ثانية صاح يائسًا.

قاتل مثل مخباط بشري، وكانت كل ضربة من سيفه المخيف ستشطر إلى نصفين أي رجل أو فتى يقف في طريقه، لكن بيتر دار حوله كأن الهواء الذي يهب من ضرباته أبعده عن منطقة الخطر، ومرة بعد مرة سدد وطعن.

كان هوك يقاتل بلا أمل، ولم يعد ذلك الصدر الجياش يطلب الحياة، لكنه تاق إلى نعمة وحيدة، أن يرى خلق بيتر السيء، قبل أن يبرد جسده إلى الأبد.

فترك القتال واندفع إلى مخزن البارود وأشعل فيها النار.

وصاح «ستنفجر السفينة إلى قطع في غضون دقيقتين».

خطر له أن الخلق الحقيقي سيظهر الآن.

لكن بيتر خرج من مخزن البارود حاملًا قذيفة بيديه، ورماها بهدوء من السفينة.

أي نوع من الخلق كان يبديه هوك نفسه؟ رغم أنه كان رجلًا ضالًا، لنا أن نسرّ، دون أن نشفق عليه، لأنه في النهاية كان مخلصًا لتقاليد بني جنسه. كان الفتية الآخرون يطيرون حوله موبخين معنفين، وترنح هو على سطح السفينة مسددًا ضرباته لهم بعجز. لم يكن ذهنه مشغولًا بهم بل كان يهيم في ملاعب الزمن البعيد، أو يحكم عليه بالسجن إلى الأبد، أو يراقب مباراة كرة القدم من فوق جدار فخم، وكان حذاؤه وصدريته وربطة عنقه وجواربه كلها أنيقة.

الوداع يا جيمس هوك، رغم أنك لست بطلًا حقيقيًا.

لأننا وصلنا إلى لحظته الأخيرة.

حين رأى بيتر يتقدم نحوه في الهواء مشهرًا خنجره، قفز من السياج وألقى بنفسه إلى البحر. ولم يعلم أن التمساح كان في انتظاره، لأننا أوقفنا الساعة متعمدين، فلربما أنقذته هذه المعرفة، هذه علامة صغيرة على احترامنا في النهاية.

لقد حظي بنصر أخير، وأظننا لسنا بحاجة لإنكاره. حين وقف على السياج ينظر من فوق كتفه إلى بيتر ينزلق في الهواء، دعاه بإيماءة منه أن يستخدم قدمه، وهذا ما جعل بيتر يركل بدلًا من أن يطعن.

أخيرًا حظي هوك بالنعمة التي تمناها.

«خلق سيء»، هتف بمرح، وذهب مرتاحاً إلى التمساح.

وهكذا مات جيمس هوك.

«سبعة عشر»، غنى سلايتلي لكنه لم يكن مصيبًا تمامًا في الحساب. لقد دفع خمسة عشر ثمن جرائمهم تلك الليلة، لكن اثنين منهم وصلا الشاطئ، ستاركي الذي قبض عليه الهنود الحمر وجعلوه حاضنًا لصغارهم، وهي نهاية مذلة حزينة لقرصان، وسمي الذي جال العالم حتى الآن واضعًا نظارته، وهو يحيا حياة محفوفة بالمخاطر بقوله إنه كان الرجل الوحيد الذي يخشاه جيمس هوك.

وقفت وندي طبعًا دون أن تشارك في القتال، رغم أنها كانت تراقب بيتر بعينين لامعتين، لكن حين انتهى كل هذا صارت جادة ثانية. أثنت عليهم جميعًا بالتساوي، وارتعشت من الفرح حين أراها مايكل المكان الذي قتل فيه واحدًا. ثم أخذتهم إلى مقصورة هوك وأشارت إلى ساعته المعلقة على مسمار وتقول إنها الواحدة والنصف!

كان تأخر الوقت هو أكبر المسائل تقريبًا، فجعلتهم يخلدون للنوم في أسرة القراصنة سريعًا. طبعًا، كلهم عدا بيتر الذي ذرع سطح السفينة جيئة وذهابًا حتى غط في النوم أخيرًا قرب مدفع لونغ توم، ورأى أحد أحلامه تلك الليلة وبكى في نومه طويلًا وعانقته وندي بقوة.

الفصل السادس عشر
العودة

استيقظ الجميع عند رنين الجرس الثاني من ذلك الصباح، لأن أمامهم رحلة بحرية كبيرة. كان توتلز، كبير الملاحين، في وسطهم حاملًا طرف الحبل في يده ويمضغ التبغ. ارتدوا كلهم ثياب القراصنة وقد اهترأت عند الركبتين، وحلقوا بأناقة، وتعثروا وهم يمسكون بسراويلهم، وقد صففوا شعورهم بتسريحات البحارة الحقيقيين.

لا حاجة للقول من كان القبطان. أما نيبز وجون فكانا المساعدين الأول والثاني. وحملت السفينة امرأة على متنها، وكان البقية ملاحين عند الصارية، ونشطوا في مقدم السفينة. كان بيتر قد اندفع إلى عجلة القيادة، لكنه تحدث إلى الجميع وألقى عليهم خطابًا قصيرًا، قائلًا إنه يأمل منهم أن يؤدوا واجبهم مثل رجال شجعان، لكنه عرف أنهم ليسوا سوى حثالة ريو والشاطئ الذهبي، وأنهم إن عارضوه فسيمزقهم إربًا. كانت كلماته الطنانة المتكلفة قد اتخذت النبرة التي يعرفها البحارة، وحيوه بمرح، ثم أعطيت بضع أوامر دقيقة، وأداروا السفينة ويمموا بها شطر البر الرئيس.

أجرى القبطان پان حساباته بعد النظر إلى خارطة السفينة، وأعلن أنهم سيصلون جزر الأزور[1] يوم الحادي والعشرين من يونيو، إذا ظل الطقس هكذا، ما سيوفر الوقت بعدها للطيران.

أراد لها بعضهم أن تكون سفينة نزيهة وآثر آخرون إبقاءها سفينة قراصنة، لكن القبطان عاملهم كالكلاب، ولم يجرؤوا على الإفصاح له عن رغباتهم إليه حتى في عريضة. وكانت الطاعة الفورية هي الأمر الآمن الوحيد. كان سلايتلي الأكثر طاعة بينهم، لأنه بدا مشوشًا حين أمر بالاهتمام برصد الأحوال الجوية. وكان الشعور العام بنزاهة پيتر نزيه مخاوف وندي، لكن قد يطرأ تغيير حين تجهز البزة الجديدة، التي كانت تخيطها له، مرغمة، من بعض ثياب هوك اللئيم. تهامسوا بينهم بعدها أنه في الليلة الأولى التي ارتدى فيها هذه البزة، جلس في المقصورة واضعًا مبسم هوك في فمه وقد أطبق أصابع إحدى يديه كلها، ما عدا السبابة التي ثناها ورفعها مهددًا مثل خطاف.

علينا، على أية حال، بدلًا من مراقبة السفينة، أن نعود الآن إلى ذلك المنزل المقفر الذي طار منه ثلاثة من شخصياتنا في رحلة شجاعة قبل زمن طويل. يبدو من المخجل تجاهل المنزل رقم ١٤ طوال هذا الوقت، ومع ذلك علينا أن نكون واثقين أن السيدة دارلنغ لا تلومنا. فلو أننا عدنا أسرع لننظر إليها بتعاطف حزين، لصرخت بنا على الأرجح «لا تكونوا سخيفين، لمَ تهتمون بأمري؟

(١) إحدى منطقتي الحكم الذاتي في البرتغال، تتألف من تسع جزر بركانية.

اذهبوا واحرسوا الأطفال». وما دامت الأمهات هكذا فسيستغلهن الأطفال طويلًا، وقد يقبلن بهذا.

وها نحن ندخل غرفة الأطفال المألوفة فقط لأن ساكنيها الحقيقيين في طريق العودة. قد نسرع قبلهم لنرى أن أسرّتهم حسنة التهوية، وأن السيد والسيدة دارلنغ لا يخرجان مساء. نحن لسنا خدمًا، فلم بحق السماء تكون أسرتهم حسنة التهوية ما داموا قد غادروا بعجلة جاحدة هكذا؟ ألن يكون من العدل أن يعودوا ويجدوا أهلهم يقضون نهاية الأسبوع في الريف؟ سيكون في ذلك العبرة التي احتاجوها منذ التقيناهم. ولكن لو أننا نقلنا الأشياء هكذا، ما كانت السيدة دارلنغ لتغفر لنا.

ثمة أمر أود فعله كثيرًا، وهو أن أخبرها، بطريقة الكتّاب، أن الأطفال عائدون، وأنهم سيكونون هنا حقًا يوم الخميس. سيفسد هذا المفاجأة لتي كان يتطلع إليها جون ومايكل ووندي. فقد كانوا يتخيلون المفاجأة على السفينة؛ نشوة الأم، وصرخة الأب الفرحة، ووثبة نانا في الهواء لتعانقهم أولًا، في حين أن عليهم الاستعداد جيدًا للاختباء. كم هو لذيذ إفساد الأمر برمته بنقل الأخبار مسبقًا، حتى إن دخلوا قد لا تقدم السيدة دارلنغ على تقبيل وندي، وقد يقول السيد دارلنغ بأسى «يا للهول! ها قد عاد الأولاد ثانية». على أية حال لا يمكننا أن نتلقى الثناء لهذا، فقد صرنا نعرف السيدة دارلنغ بعد هذا الوقت ونثق أنها ستوبخنا لسلب الفرحة من أطفالها.

«ولكن يا سيدتي العزيزة، ظل عشرة أيام حتى يوم الخميس، وسننقذك من عشرة أيام تعسة، إن أخبرناك ما سيحدث».

«أجل، ولكن يا له من ثمن! أن تسلب الأطفال عشر دقائق من البهجة».

«أوه، إن كنت ترين الأمر هكذا».

«وكيف يكون الأمر عدا هذا؟».

لا تتمتع النساء بروح المرح، كما ترون. فقد عزمت قول أمور مفرحة للغاية عنها، لكني اغتظت منها ولن أقول أيًا منها الآن. إنها ليست بحاجة أن يقال لها أن تستعد، لأنها جاهزة، وكل الأسرة حسنة التهوية ولم تترك البيت أبدًا، وانتبهِ إلى النافذة مفتوحة. وكل ما سنفيدها به أن نعود الى السفينة. على أية حال ما دمنا هنا فقد نظل أيضًا ونراقب، لذا دعونا نر ونقول أشياء وقحة بأمل أن يتألم أحدهم.

إن التغيير الوحيد الذي يمكن رؤيته في غرفة نوم الأطفال، عدم وجود الوجار في الوقت بين التاسعة والسادسة. شعر السيد دارلنغ في قرارة نفسه، حين طار الأطفال، أن اللوم يقع عليه لأنه ربط نانا، وأنها كانت أكثر حكمة منه منذ البداية حتى النهاية. وكما رأينا، كان رجلًا ساذجًا حقًا. في الحقيقة كان من الممكن أن يعود فتى ثانية، لو كان بوسعه التخلي عن صلعه، لكنه يتمتع بحس نبيل من العدالة وشجاعة الأسد لفعل ما بدا صائبًا له. وبعد أن تفكر بالأمر باهتمام قلق بعد رحيل الأطفال، جثا على الأربع وحبا نحو

الوجار. وقد رد على كل دعوات السيدة دارلنغ المحبة بأن يخرج بحزن لكن بحزم قائلًا:

«كلا، يا حبيبتي، هذا مكاني».

ولقد أقسم في مرارة ندمه ألا يبرح الوجار حتى يعود الأطفال. كان هذا محزنًا بلا شك، لكن أيًا كان ما يفعله السيد دارلنغ، فإنه يفعله بإفراط وإلا فإنه سيتخلى عنه سريعًا. وما من رجل أكثر تواضعًا من الذي كان مرة جورج دارلنغ المغرور إذ جلس في الوجار ذات ليلة يتحدث مع زوجته عن الأولاد وعاداتهم الجميلة.

كان بغضه لنانا مؤثرًا، فلم يكن يسمح لها أن تدخل الوجار لكنه كان ينصاع لرغباتها انصياعًا تامًا في كل الأمور الأخرى.

كان الوجار، وبداخله السيد دارلنغ ينقلان إلى المكتب بسيارة أجرة كل صباح، ويعودان إلى البيت بالطريقة نفسها في السادسة. وسنعرف شيئًا من قوة شخصية الرجل، إن تذكرنا كم كان حساسًا تجاه آراء الجيران، هذا الرجل الذي كانت كل لحظة من حياته تجذب اهتمامًا متعجبًا. لا بد أنه عانى العذاب في داخله، لكنه احتفظ بمظهر هادئ حتى حين سخر الشباب من بيته الصغير، وكان يرفع قبعته بتهذيب دائمًا لأي سيدة تلقي نظرة على للداخل.

ربما كان ذلك مؤثرًا لكنه كان هائلًا. سرعان ما ذاع السر، وتأثر قلب العامة كثيرًا. وتبعت الحشود سيارة الأجرة، محيية إياها بمرح، فقد مشت قربها الفتيات الفاتنات للحصول على توقيعه، وظهرت الحوارات معه في أفضل الصحف، ودعاه المجتمع إلى

حفلات العشاء مضيفًا «تعال بالوجار».

في ذلك الخميس العامر بالأحداث كانت السيدة دارلنغ تجلس في غرفة نوم الأطفال بانتظار عودة جورج إلى المنزل، كانت امرأة حزينة العينين كثيرًا. حين ننظر إليها عن كثب ونتذكر مرح أيامها الخوالي، وقد ذهب كله بسبب فقدانها لصغارها، أرى أنني لن أستطيع قول أشياء كريهة عنها في النهاية. فإن كانت مولعة بأطفالها التافهين فليس بوسعها ألا تفعل. انظروا إليها في كرسيها حيث غطت في النوم، وقد ذبلت قليلًا زاوية فمها، حيث ينظر المرء أولًا. تحرك رأسها بقلق على صدرها كأنها تشعر بألم فيه. يحب بعضكم بيتر أكثر من الجميع، وبعضكم يحب وندي أكثر، لكنني أحبها [السيدة دارلنغ] أكثر. لنقل، بغية بث السعادة في روحها، إننا همسنا في نومها أن الصغار كانوا عائدين.

لقد كانوا فعلًا على بعد ميلين من النافذة، ويطيرون بقوة، وكل ما نحتاج للهمس به أنهم في طريقهم، فلنفعل.

إن ما فعلناه لأمر محزن، لأنها نهضت منادية أسماءهم، ولم يكن في الغرفة أحد إلا نانا.

«أوه يا نانا، حلمت أن أحبائي قد عادوا».

كانت عينا نانا ناعستين، وكل ما فعلته أن وضعت كفها بلطف في حضن سيدتها، وكانتا تجلسان هكذا حين أعيد الوجار. وحين أخرج السيد دارلنغ رأسه ليقبل زوجته، رأينا أن وجهه قد صار أكثر ذبولًا من ذي قبل، لكن تقاطيعه أهدأ.

أعطى قبعته لليزا، التي أخذتها بازدراء لأنها تفتقر للخيال، وكانت عاجزة تمامًا عن فهم دوافع هذا الرجل. كان الحشد الذي رافق سيارة الأجرة في الخارج لم يزل يهتف محييًا ولم يكن قاسي القلب طبعًا.

«استمعي إليهم»، قال «إن هتافهم مبهج جدًا».

«ليسوا سوى جمع من الأولاد الصغار»، قالت ليزا ساخرة.

«جاء الكثير من البالغين اليوم»، أكد لها وقد احمر بقليل من الخجل، ولكنه لم يوبخها بكلمة حين هزت رأسها، لأن النجاح الاجتماعي لم يفسد خلقه، بل جعله ألطف. جلس لبعض الوقت مادًا رأسه خارج الوجار يتحدث إلى السيدة دارلنغ عن نجاحه ضاغطًا يدها بطمأنة، حين قالت إنها تأمل ألا يشعر بالكِبر بسبب ذلك.

«لكن لست رجلًا ضعيفًا»، قال، «يا للسماء، لست رجلًا ضعيفًا!».

فقالت متوددة «هل تشعر بالندم دومًا يا جورج؟».

«أجل يقتلني الندم دومًا يا أغلى الناس. انظري إلى عقابي، إنني عيش في وجار».

«لكنه عقاب، أليس كذلك يا جورج؟ هل أنت متأكد أنك لا تستمتع به؟».

«حبيبتي!».

تأكدوا أنها استماحته عذرًا، ثم التف في الوجار وهو يشعر بالنعاس.

«ألن تعزفي لي على البيانو في غرفة اللعب حتى أنام؟» سأل، ثم أضاف بلا اهتمام حين كانت تتجه نحو غرفة اللعب، «وأغلقي تلك النافذة، أستشعر تيارًا هوائيًا».

«لا تطلب مني فعل ذلك مطلقًا يا جورج، لا بد أن تظل النافذة مفتوحة لهم، دائمًا دائمًا».

وكان الآن دوره في أن يستميحها عذرًا، ودخلت غرفة اللعب وعزفت، فغط في النوم سريعًا، ودخلت وندي وجون ومايكل إلى الغرفة أثناء نومه.

أوه كلا، لقد كتبنا هذا لأن هذه كانت الخطة الرائعة التي وضعوها قبل أن نغادر السفينة، لكن لا بد أن شيئًا قد حدث منذئذ، لأنهم لم يكونوا هم من دخل الغرفة بل بيتر وتنكر بل.

وتشرح كلمات بيتر الأولى الأمر كله.

همس «أسرعي يا تنك، أغلقي النافذة، أقفليها بالمزلاج. هذا جيد. والآن علينا أنا وأنت أن نخرج من الباب، وحين تأتي وندي ستظن أن أمها قد منعتها من الدخول، وستضطر للعودة معي».

بت أفهم ما حيرني حتى اللحظة، ولم لم يعد بيتر إلى الجزيرة بعدما قضى على القراصنة، وجعل تنك تقود الأطفال إلى البر الرئيس. لقد كانت هذه الخدعة تدور في ذهنه طوال الوقت.

وبدلًا من الشعور أنه كان يسيء التصرف رقص جذلًا، ثم استرق النظر إلى غرفة اللعب ليرى من الذي يعزف. فهمس لتنك «إنها أم وندي. إنها سيدة جميلة لكنها ليست بجمال أمي. ثغرها مليء بالكشتبانات لكنه ليس مليئًا بقدر ثغر أمي».

لم يكن يعلم بالطبع شيئًا عن أمه، لكنه كان يتبجح بشأنها أحيانًا.

لم يعرف لحن الأغنية، التي كانت «منزلي الجميل يا منزلي»، لكنه عرف أنها تقول «عودي يا وندي وندي وندي»، فصاح بابتهاج «لن تري وندي ثانية، أيتها السيدة، لأن النافذة مغلقة بالمزلاج».

استرق النظر ثانية ليعرف لم توقفت الموسيقى ورأى السيدة دارلنغ قد أرخت رأسها على غطاء البيانو، وأن دمعتين كانتا تستقران على عينيها.

«تريدني أن أفتح النافذة، لكني لن أفعل. كلا»، قال بيتر في نفسه.

استرق النظر ثانية ورأى الدمعتين، أو ربما احتلت مكانهما أخريان.

«إنها مولعة بوندي كثيرًا»، قال لنفسه. كان غاضبًا منها لأنها لم تعرف لمَ لا يمكنها الاحتفاظ بوندي.

كان السبب بسيطًا للغاية، «لأني مولع بها أيضًا ولا يمكن لكلينا الاحتفاظ بها أيتها السيدة».

لكن السيدة لم تكن لتسعد بهذا، وكان هو تعسًا. كف عن النظر إليها، لكن صورتها لم تمّحِ من ذهنه. فمر بها وصنع وجوهًا مضحكة ولكن حين توقف كان كأنما كانت في داخله تضرب بعنف.

«أوه، حسنًا»، قال أخيرًا بغصة ثم فتح النافذة وتابع بسخرية مريرة من قانون الطبيعة «هيا بنا يا تنك، لسنا بحاجة لأمهات سخيفات»، وطار مبتعدًا.

وهكذا وجد وندي وجون ومايكل النافذة مفتوحة لهم في النهاية، وكان ذلك أكثر مما يستحقونه طبعًا. حطوا على الأرض دون خجل من أنفسهم، وقد نسي أصغرهم بيته.

قال ناظرًا حوله في ارتياب «أظنني كنت هنا من قبل يا جون».

«بالطبع كنت أيها السخيف. ذاك فراشك القديم».

«أجل إنه هو»، قال مايكل دون اقتناع كبير.

هتف جون «انظروا إلى الوجار!»، ثم اندفع لينظر داخله.

«ربما تكون نانا داخله»، قالت وندي.

لكن جون صفّر وقال «مرحبا. ثمة رجل داخله».

«هذا أبي!»، قالت وندي بعجب.

«دعيني أر أبي»، توسل مايكل بلهفة، وألقى نظرة متفحصة، «إنه ليس ضخمًا مثل القرصان الذي قتلته»، قال بخيبة أمل واضحة، حتى إنني سررت لنوم السيد دارلنغ. إذ سيحزن لسماع كلمات صغيره مايكل الأولى هذه.

تعجب مايكل ووندي لرؤية أبيهم في الوجار.

«هل اعتاد النوم في الوجار حقًا؟»، قال جون كمن فقد إيمانه بذاكرته.

قالت وندي ملاطفة «ربما لسنا نتذكر حياتنا القديمة مثلما ظننا يا جون».

أصابتهم رعدة قليلة وكانوا يستحقونها.

قال جون الفتى اللئيم «إنها أم مهملة، لئلا تكون هنا حين عودتنا».

عندها بدأت السيدة دارلنغ العزف ثانية.

«إنها أمي!»، قالت وندي مختلسة النظر.

«هذا صحيح!»، قال جون.

«أفلستِ أمنا الحقيقية إذًا؟»، سأل مايكل الذي كان ناعسًا.

«يا إلهي»، قالت وندي بأول وخزة ندم حقيقي لها، «لقد عدنا في الوقت المناسب».

«لنتسلل داخلًا، ونغطي عينيها بأيدينا»، اقترح جون.

لكن وندي، التي رأت أن عليهم إعلان الأنباء السارة بلطف أكبر، كان لديها خطة أفضل.

«لنندس كلنا في فرشنا ونظل فيها حين تدخل، كأننا لم نرحل أبدًا».

وهكذا حين عادت السيدة دارلنغ إلى غرفة النوم لترى إن كان زوجها نائمًا، كانت كل الفرش مشغولة. انتظر الأطفال صرخة فرحها، لكنها لم تصدر عنها. فقد رأتهم لكنها لم تصدق أنهم موجودون، إذ كانت، كما تعرفون، تراهم في فرشهم كثيرًا في أحلامها، حتى إنها ظنت هذا مجرد حلم ما زال يطوف حولها.

جلست على الكرسي قرب النار حيث كانت ترعاهم في الأيام الخوالي.

لم يستطيعوا فهم هذا، وخيم على الثلاثة منهم خوف بارد.

«أمي!»، هتفت وندي.

«هذه وندي»، قالت، لكنها لم تزل متأكدة أنه حلم.

«أمي!».

«هذا جون»، قالت.

«أمي!»، صاح مايكل وقد تذكرها.

«وهذا مايكل»، قالت ومدت ذراعيها للأطفال الأنانيين الثلاثة لأنهم لم يعانقوها ثانية. بلى، لقد فعلوا، فقد التف حولها جون ومايكل ووندي الذين انسلوا خارج فرشهم وجروا نحوها.

«جورج، جورج»، صاحت حين أمكنها الكلام واستيقظ السيد دارلنغ ليشاركها النعمة، وجاءت نانا مسرعة. ليس ثمة مشهد أجمل من هذا، لكن لم يكن أحد يراه سوى صبي غريب كان يحدق في النافذة. كان لديه الكثير من المباهج التي لا يعرفها

الأطفال الآخرون، لكنه كان ينظر عبر النافذة إلى الفرحة الوحيدة التي سيظل محرومًا منها للأبد.

الفصل السابع عشر
حين كبرت وندي

أرجو أنكم راغبون بمعرفة ما حدث للفتية الآخرين. لقد كانوا ينتظرون في الأسفل ليمنحوا وندي الوقت لتتحدث عنهم، وحين عدّوا حتى الخمسمئة صعدوا. صعدوا مستخدمين الدرج، لأنهم ظنوا أن هذا سيخلف انطباعًا أفضل. ووقفوا في صف أمام السيدة دارلنغ وقد خلعوا قبعاتهم، متمنين لو أنهم لم يرتدوا ثياب القراصنة. لم يقولوا شيئًا لكن عيونهم طلبت منها أن تأخذهم. كان عليهم أن ينظروا إلى السيد دارلنغ أيضًا، لكنهم نسوا أمره.

قالت السيدة دارلنغ على الفور إنها ستتبناهم، لكن السيد دارلنغ كان محبطًا إحباطًا غريبًا، وأدركوا أنه يرى العدد ستة رقمًا كبيرًا.

قال لوندي «لا بد من القول إنكم لتبذلون جهدًا كبيرًا»، وكان قوله تعليقًا ممتعضًا ظنه التوءمان موجهًا لهما.

كان التوءم الأول مغرورًا فسأل محمرًا من الخجل «هل تظن أننا سنكون كثيرين يا سيدي؟ لأنك إن كنت ترى ذلك فسنرحل على الفور».

«أبي!»، قالت وندي مذهولة، لكن العبوس ما زال على محياه. كان يعرف أنه يتصرف بتفاهة لكنه لم يستطع منع نفسه.

«يمكننا النوم بالتوازي»، قال نيبز.

«وسأقص شعرهم دومًا بنفسي»، قالت وندي.

«جورج!»، قالت السيدة دارلنغ وقد آلمها أن ترى زوجها العزيز يظهر نفسه بهيئة بغيضة كهذه.

ثم انفجر بالبكاء وانكشفت الحقيقة. لقد كان سعيدًا بتبنيهم بقدرها، كما قال، لكنه ظن أن عليهم طلب إذنه مثلها، بدلًا من معاملته مثل النكرة في بيته.

«لا أظنه نكرة»، هتف توتلز بسرعة، «هل تظنه كذلك يا كيرلي؟».

«لا، لا أظنه كذلك. هل تظنه نكرة يا سلايتلي؟».

«بالطبع لا، ما رأيكما أيها التوءمان؟».

وتبين أن لا أحد منهم يراه نكرة، فسرّ كثيرًا، وقال إنه سيعثر على مكان مناسب لهم في غرفة الجلوس إن كانت تناسبهم.

«ستناسبنا يا سيدي»، أكدوا له.

«فأطيعوا القائد إذًا»، هتف مرحًا، «غير أنني لست متأكدًا أن لدينا غرفة جلوس لكننا نتظاهر بذلك، والأمر سيان. هوپ لا!».

فمضى راقصًا في أنحاء البيت، وصاحوا جميعًا «هوپ لا!»،

ورقصوا مثله باحثين عن غرفة الجلوس. لقد نسيتُ إن كانوا عثروا عليها، لكنهم على أي حال عثروا على الزوايا وقد ناسبتهم جميعًا.

أما بيتر، فقد رأى وندي مرة أخرى قبل أن يطير بعيدًا. لم يقترب من النافذة تمامًا، لكنه مرر يده عليها في عبوره، حتى يكون بوسعها فتحها إن أرادت ذلك، وهذا ما فعلته.

«مرحبًا يا وندي، وإلى اللقاء»، قال.

«أوه هل أنت راحل يا عزيزي؟».

«أجل».

«أتشعر يا بيتر برغبة في قول أي شيء لوالدي عن أمر جميل جدًا؟»، قالت بتودد.

«لا».

«عني يا بيتر؟».

«لا».

جاءت السيدة دارلنغ إلى النافذة لأنها في الوقت الراهن كانت تبقي عينًا يقظة على وندي. وأخبرت بيتر أنها تبنت كل الفتية الآخرين وتود تبنيه أيضًا.

«هل سترسلني إلى المدرسة؟»، سأل بمكر.

«أجل».

«ثم إلى المكتب؟».

«أظن ذلك».

«وهل سأصبح رجلًا في وقت قريب؟».

«قريب جدًا».

فقال لها بانفعال «لا أريد الذهاب إلى المدرسة وتعلم أشياء جدية. ولا أريد أن أكون رجلًا. يا أم وندي، الويل لي إن كنت سأستيقظ وأرى لحية نبتت لي».

قالت وندي تهدئه «بيتر! سأحبك باللحية»، ومدت السيدة دارلنغ يدها له لكنه رفضها.

«ابقي بعيدة أيتها السيدة، لن يمسك بي أحد ويجعل مني رجلًا».

«ولكن أين ستعيش؟».

«مع تنك في البيت الذي بنيناه لوندي. سترفعه الجنيات على أغصان الشجر العالية حيث ينمن ليلًا».

«يا للروعة!»، هتفت وندي بلهفة كبيرة جعلت السيدة دارلنغ تحكم قبضتها.

«ظننت أن الجنيات متن جميعًا»، قالت السيدة دارلنغ.

«ثمة الكثير دومًا من الصغيرات»، شرحت وندي التي كانت مقنعة، «فكما تعرفين حين يضحك طفل للمرة الأولى تولد جنية جديدة، وستظل الجنيات موجودات ما دام أطفال جدد يولدون

دومًا. إنهن يعشن في الأعشاش أعالي الشجر. والفتيان منهم لهم لون بنفسجي، وأما البيضاوات فهن الفتيات والزرق ليسوا سوى سخفاء صغار لا يعرفون ما هم بعد».

«سأحظى بمتعة كبيرة»، قال پيتر وعينه على وندي.

«سيكون الجلوس قرب النار مساء موحيًا بالوحدة»، قالت.

«ستكون معي تنك».

«لا يمكن لتنك أن تنهي جزءًا يسيرًا من الأعباء المنزلية»، ذكرته بشيء من السخرية.

«واشية لئيمة!»، صاحت تنك من مكان ما قرب الزاوية.

«لا يهم»، قال پيتر.

«لكنك تعرف أن هذا مهم يا پيتر».

«حسن إذًا، تعالي معي إلى البيت الصغير».

«هل يمكنني يا أمي؟».

«قطعًا لا، لقد عدت إلى البيت وأنوي إبقاءك فيه».

«لكنه بحاجة لأم».

«وأنت كذلك يا حبيبتي».

«أوه، حسن»، قال پيتر كانه سألها بدافع التهذيب فحسب. لكن السيدة دارلنغ رأت فمه يرتعش، وعرضت عليه عرضًا جميلًا، بأن تسمح لوندي بالذهاب معه لأسبوع من كل عام لتنظف له

تنظيف الربيع. كانت وندي تفضل موعدًا أكثر انتظامًا، وبدا لها أن الربيع سيتأخر في القدوم، لكن هذا الوعد جعل بيتر يذهب مرحًا ثانية. لم يكن يشعر بالوقت، وكان مفعمًا بالمغامرات حتى إن كل ما أخبرتكم به كان أقلها شأنًا. وأظن أن ذلك يعود إلى معرفة وندي أن كلماتها الأخيرة معه، كانت هذه الكلمات الحزينة بعض الشيء:

«لن تنساني يا بيتر قبل حلول موعد تنظيف الربيع، أليس كذلك؟».

وعدها بيتر طبعًا ثم حلق بعيدًا، وأخذ معه قبلة السيدة دارلنغ. القبلة التي لم ينلها أحد آخر أخذها بيتر بسهولة، أمر غريب، لكنها بدت راضية.

ذهب كل الفتية إلى المدرسة طبعًا، وذهب معظمهم إلى الصف الثالث عدا سلايتلي الذي وضع أولًا في الصف الرابع ثم نقل إلى الخامس. كان الصف الأول هو الأعلى. أدركوا قبل ذهابهم إلى المدرسة بأسبوع حمقَهم لعدم بقائهم على الجزيرة. لكن الأوان قد فات، وسرعان ما صاروا عاديين مثلك ومثلي أو جنكنز الصغير. من المؤسف أن نضطر للقول إنهم نسوا القدرة على الطيران شيئًا فشيئًا. فقد ربطت نانا في بادئ الأمر أرجلهم إلى قوائم السرير لئلا يطيروا ليلًا، وكان التظاهر بالطيران إحدى تسلياتهم نهارًا. غير أنهم صاروا عاجزين بمرور الوقت حتى عن الطيران خلف قبعاتهم. وعزوا ذلك إلى قلة التمرين، لكن ما يعنيه ذلك حقيقة أنهم فقدوا إيمانهم.

آمن مايكل لوقت أطول من بقية الفتيان، رغم أنهم سخروا منه لذا فقد كان مع وندي حين جاء بيتر لأخذها في نهاية السنة الأولى. وطارت مع بيتر مرتدية العباءة التي حاكتها من أوراق الشجر والتوت في نفرلاند، وكانت تخشى فقط أن يلاحظ كم أصبحت قصيرة لكنه لم ينتبه أبدًا، إذ كان لديه الكثير ليحكيه عن نفسه.

كانت تترقب أحاديث مثيرة معه عن الأيام الخوالي، لكن مغامرات جديدة قد زاحمت المغامرات القديمة في ذهنه.

«من هو القبطان هوك؟»، سألها باهتمام حين تحدثت عن العدو الخبيث.

سألته مندهشة «ألا تذكر كيف قتلته وأنقذت حياتنا جميعًا؟».

«أنساهم ما إن أقتلهم»، أجاب بلا اكتراث.

حين أفصحت عن أمل مرتاب بأن تكون تنكر بل مسرورة لرؤيتها قال «ومن هي تنكر بل؟».

«أوه يا بيتر!»، قالت مذهولة، لكنه لم يستطع التذكر حتى بعد أن شرحت له.

«يوجد الكثير من الجنيات، ولا أظنها معهن».

وأظنه كان محقًا، لأن الجنيات لا يعشن طويلًا. لكنهن صغيرات جدًا حتى ليبدو الوقت القصير كافيًا لهن.

تألمت وندي أيضًا لمعرفة أن السنة الماضية لم تكن سوى البارحة لدى بيتر، وقد بدت لها سنة طويلة من الانتظار. لكنه كان ساحرًا

كعادته وقضيا ربيعًا جميلًا في تنظيف المنزل الصغير على أعالي الشجر.

لم يأت لأخذها في السنة التالية، وانتظرته بعباءة جديدة، لأن القديمة لن تكون ملائمة تمامًا، لكنه لم يأت مطلقًا.

«ربما كان مريضًا»، قال مايكل.

«أنت تعرف أنه لا يمرض أبدًا».

اقترب مايكل منها وهمس برجفة «ربما ما من شخص كهذا يا وندي!»، وكانت وندي ستبكي لو لم يبك مايكل.

جاء بيتر الربيع التالي، الغريب أنه لم يعرف أنه فوّت سنة.

كانت هذه آخر مرة رأته فيها وندي الفتاة، لأنها حاولت لزمن أطول قليلًا من أجله ألا يكبر جسدها، وشعرت أنها خانته حين حصلت على جائزة المعرفة العامة. لكن السنون راحت وغدت دون أن يظهر الصبي اللامبالي، وحين التقيا ثانية كانت وندي امرأة متزوجة، ولم يعد بيتر بالنسبة إليها أكثر من غبار في الصندوق الذي تحفظ فيها دماها. صارت وندي كبيرة، لا تأسفوا من أجلها، فقد كانت من النوع الذي يحب أن يكبر، وقد كبرت في النهاية بمحض إرادتها يومًا أسرع من بقية الفتيات.

كبر كل الأولاد وهرموا بمرور الوقت، لذا يجدر بنا قول شيء صغير عنهم. قد ترى التوءمين ونيلز وكيرلي في أي يوم ذاهبين إلى المكتب، وكل واحد منهم يحمل حقيبة صغيرة ومظلة. صار مايكل

سائق قطار، وتزوج سلايتلي بسيدة ذات مكانة، وصار لورد. هل ترون القاضي الذي يضع شعرًا مستعارًا ويخرج من الباب المعدني؟ هذا توتلز، أما الرجل ذو اللحية الذي لا يعرف أي قصة يحكيها لأطفاله فهو جون.

تزوجت وندي مرتدية ثوبًا أبيض له نطاق وردي. من الغريب القول إن بيتر لم يهبط في الكنيسة ويمنع إعلان الزواج.

مرت السنون ثانية وصار لوندي ابنة. يجب ألا يكتب هذا بالحبر، لكن بزينة مذهبة.

كانت تدعى جين ولها دومًا نظرة متسائلة غريبة، كأنها منذ اللحظة التي وصلت فيها البر الرئيس أرادت أن تطرح الأسئلة. وحين صارت كبيرة لتفعل ذلك، كانت معظم أسئلتها عن بيتر بان. أحبت أن تسمع عن بيتر وأخبرتها وندي بما أمكنها تذكّره في غرفة الأطفال نفسها التي انطلقت منها الرحلة المشهورة. وقد صارت غرفة جين الآن، لأن أباها اشترى المنزل في أيام الكساد، من أبي وندي الذي لم يعد يقوى صعود الدرج. كانت السيدة دارلنغ قد ماتت ونسي أمرها.

كان في غرفة الأطفال سريران فقط.

سرير لجين وآخر لمربيتها، ولم يكن فيها وجار لأن نانا قد ماتت أيضًا، بسبب تقدم العمر، وصار يصعب التعامل معها في النهاية، وقد اقتنعت بشدة أن ما من أحد يعرف كيف يعتني بالأطفال سواها.

كانت مربية جين تأخذ إجازة مرة في الأسبوع، ويكون على وندي عندئذ دور أن تضع جين في الفراش، وكان هذا وقت القصص. ابتدعت جين رفع الشرشف فوق رأسها ورأس أمها، وصنعت خيمة وهمست في العتمة الشديدة:

«ما الذي نراه الآن؟».

«لا أظنني أرى شيئًا الليلة»، قالت وندي وهي تشعر أن نانا كانت ستعترض على مزيد من الكلام لو أنها حاضرة.

«بلى ترين»، قالت جين، «ترين نفسك حين كنت فتاة صغيرة».

«كان هذا منذ زمن بعيد يا حلوتي»، قالت وندي، «آه يا لحظي! كم يطير الوقت سريعًا».

«هل يطير حقًا؟»،سألت الفتاة الماكرة، «مثلما طرت حين كنت فتاة صغيرة؟».

«كما طرت! هل تعلمين يا جين أنني أحيانًا أتساءل إن كنت طرت يومًا؟».

«أجل فعلت».

«يا للأيام الخوالي الجميلة حين كان بوسعي الطيران».

«لم لا يمكنك الآن يا أمي؟».

«لأنني كبيرة يا غاليتي. ينسى الناس كيف يطيرون حين يكبرون».

«لماذا ينسون الطريقة؟».

«لأنهم يفقدون المرح والبراءة والجسارة. وحدهم المرحون والجسورون والبريئون بوسعهم الطيران».

«ما معنى المرح والبراءة والجسارة؟ أتمنى أن أكون مرحة وجسورة وبريئة».

أو لعل وندي أقرّت أنها ترى شيئًا. «أظن أنها هذه الغرفة»، قالت.

«أظن ذلك. تابعي»، قالت جين.

كانتا الآن قد وصلتا المغامرة الكبيرة في الليلة التي جاء فيها بيتر باحثًا عن ظله.

قالت وندي «حاول الفتى الأحمق أن يلصقه بالصابون، وأخذ يبكي حين فشل. وهذا ما أيقظني فخطته له».

«لقد نسيت القليل»، قاطعتها جين التي تعرف القصة أفضل من أمها، «حين رأيته جالسًا على الأرض يبكي، ما الذي قلته؟».

«اعتدلت في فراشي وقلت ما الذي يبكيك يا فتى؟».

«أجل، هذا ما قلته»، قالت جين بتنهيدة كبيرة.

«ثم طار بنا كلنا بعيدًا إلى نفرلاند والجنيات والقراصنة والهنود الحمر وحوريات البحيرة، والمنزل تحت الأرض والبيت الصغير».

«أجل. ما الذي أحببته أكثر من البقية؟».

«أظنني أحببت المنزل تحت الأرض أكثر».

«نعم، وأنا أيضًا. ماذا كان آخر ما قاله بيتر لك؟».

«كان آخر ما قاله لي انتظريني دومًا وستسمعين صرختي ذات ليلة».

«أجل».

«عبثًا! لقد نسي أمري تمامًا»، قالت وندي مبتسمة، فقد كانت كبيرة.

«كيف تبدو صرخته؟»، سألت جين ذات مساء.

«كانت هكذا»، قالت وندي محاولة تقليد صرخة بيتر.

«كلا، ليست كذلك»، قالت جين بحزن، «إنها هكذا»، وقلدتها أفضل من أمها بكثير.

دهشت وندي قليلًا «كيف لك أن تعرفي يا عزيزتي؟».

«أسمعها كثيرًا في نومي»، قالت جين.

«آه، أجل كثير من الفتيات يسمعنها في نومهن. لكني كنت الوحيدة التي سمعتها في يقظتي».

«يا لك من محظوظة»، قالت جين.

ثم وقعت المأساة ذات ليلة. كان الوقت من السنة فصل الربيع، ورويت قصة الليل، ونامت جين في فراشها. كانت وندي تجلس على الأرض قريبة جدًا من النار لترى وهي ترفو، فلم يكن في

الغرفة ضوء آخر. وحين جلست ترفو سمعت صرخة، ثم انفتحت النافذة كما حدث في الماضي وهبط پيتر على الأرض.

لم يتغير بتاتًا، ورأت وندي على الفور أنه لم يزل محتفظًا بأسنانه اللبنية.

كان ولدًا صغيرًا وكانت كبيرة، فانكمشت قرب النار دون أن تجرؤ على الحركة عاجزة وشاعرة بالذنب لأنها امرأة كبيرة.

«مرحبًا يا وندي»، قال دون أن يلحظ أي فرق، لأنه كان يفكر بنفسه بشكل رئيس، وظن في النور الخافت ثوبها الأبيض قد يكون المنامة التي رآها فيها أول مرة.

«مرحبًا يا پيتر»، ردت بوهن وهي تعصر نفسها لتصغر قدر استطاعتها. كان في داخلها شيء ما يصيح «دعيني أخرج يا امرأة».

«مرحبًا، أين جون؟»، سأل وقد افتقد السرير الثالث فجأة.

«لم يعد جون يسكن هنا بعد الآن»، قالت لاهثة.

«وهل مايكل نائم؟»، سأل ناظرًا نحو جين بلا مبالاة.

«أجل»، أجابت وقد شعرت أنها لم تكن صادقة مع جين و پيتر.

«هذا ليس مايكل»، قالت بسرعة مخافة الحكم الذي سيقع عليها.

نظر پيتر «مرحى! هل هو طفل جديد؟»

«أجل».

«ولد أم بنت؟».

«بنت».

كان يجب أن يفهم، لكنه لم يفعل البتة.

قالت ملاطفة «هل تتوقع مني أن أطير معك يا بيتر؟».

«طبعًا، ولهذا أتيت»، ثم أضاف بحزم، «هل نسيت أن هذا وقت تنظيف الربيع؟».

عرفت أن من غير المجدي إخباره أنه فوت العديد من أوقات تنظيف الربيع.

قالت معتذرة «لا أستطيع الذهاب، لقد نسيت كيف أطير».

«سأعلمك سريعًا».

«أوه يا بيتر، لا تهدر غبار الجنيات علي».

نهضت وقد غمره الخوف أخيرًا «ما الأمر؟»، صاح مرتعشًا.

قالت «سأشعل المصباح، ثم سترى بنفسك».

ربما كانت هذه المرة الوحيدة التي يخاف فيها بيتر فصاح «لا تشعلي المصباح».

جعلت يديها تلعبان بشعر الفتى الحزين. ولم تكن هي فتاة صغيرة مكسورة الفؤاد بسببه، بل كانت امرأة كبيرة تبتسم لكل ذلك، لكنها كانت ابتسامات مخضلة.

ثم أشعلت المصباح ورآها بيتر مطلقًا صرخة ألم، وتراجع بحدّة

حين اقتربت منه الكائنة الطويلة الجميلة منه لترفعه بين ذراعيها.

«ما الأمر؟»، صاح ثانية.

«أنا كبيرة يا بيتر، وتجاوزت العشرين بكثير. لقد كبرت منذ زمن بعيد».

«وعدتني ألا تفعلي!».

«لم أستطع منع ذلك. أنا امرأة متزوجة يا بيتر».

«كلا، لست كذلك».

«بلى. وهذه الفتاة الصغيرة في الفراش هي ابنتي».

«كلا، ليست كذلك».

لكنه ظنها كذلك، وتقدم خطوة نحو الطفلة النائمة رافعًا خنجره، لم يضرب طبعًا بل جلس على الأرض بدلًا من ذلك ونشج، ولم تدر وندي ما تفعل لتهدئته، رغم أنها فعلت ذلك مرة بسهولة. لكنها الآن ليست سوى امرأة، فخرجت من الغرفة لتحاول التفكير.

واصل بيتر بكاءه، وسرعان ما أيقظ نشيجه جين التي اعتدلت في فراشها واهتمت فورًا:

«ما الذي يبكيك يا فتى؟».

نهض بيتر وانحنى لها فانحنت له من فراشها.

«مرحبًا»، قال.

«مرحبًا»، قالت جين.

«اسمي بيتر پان»، أخبرها.

«أجل، أعرف هذا».

«عدت لآخذ أمي إلى نفرلاند»، قال مفسرًا.

«أجل، أعرف هذا. كنت بانتظارك»، قالت جين.

حين عادت وندي بحياء إلى الغرفة وجدت بيتر جالسًا على عمود السرير يزعق بمرح، في حين كانت جين مرتدية منامتها تطير في الغرفة بسرور وقور.

«هذه أمي»، شرح بيتر ونزلت جين ووقفت قربه تعلو وجهها نظرة يحب أن يراها على وجوه السيدات حين يحدقن به.

«إنه شديد الحاجة لأم»، قالت جين.

«أجل، أعرف هذا»، أقرت وندي بشيء من التجهم، «لا أحد يعرف ذلك جيدًا بقدري».

«إلى اللقاء»، قال بيتر لوندي وارتفع في الهواء، وارتفعت معه جين الجريئة، فقد صارت هذه أسهل الطرق لديها للتنقل.

اندفعت وندي نحو النافذة.

«لا، لا»، صاحت.

«سأذهب من أجل تنظيف الربيع»، قالت جين، «فهو يريدني أن أنظف له تنظيف الربيع دومًا».

«لو كان بوسعي الذهاب معكما فقط»، تنهدت وندي.

«لا يمكنك الطيران كما تعرفين»، قالت جين.

سمحت لهم وندي في النهاية بالطيران بعيدًا سويًا وآخر نظراتنا إليها تظهرها قرب النافذة، تراقبهما يحلقان في السماء حتى صارا نجمين صغيرين.

إن نظرت إلى وندي فقد ترى أن شعرها ابيضّ وصار قوامها ضئيلاً مرة أخرى، لأن هذا حدث منذ زمن طويل. وقد غدت جين امرأة لها ابنة تدعى مارغريت، وفي كل موعد لتنظيف الربيع، يأتي بيتر، إلا حين ينسى، إلى مارغريت ويأخذها إلى نفرلاند، حيث تروي له الحكايا عن نفسه فيصغي لها بلهفة. حين تكبر مارغريت سيكون لها ابنة، ستصير أم بيتر بدورها، وهكذا سيمضي الأمر، مادام الأطفال مرحين وبريئين وجسورين.

النهاية

نشرت "پيتر پـان"، أو "الصبي الذي لا يكبر أبدًا" أول مرة عام ١٩٠٤، وقد كتبها باري تخليدًا لذكرى أخيه الذي مات في حادثة تزلج قبل بلوغه الرابعة عشر، وظلت أمه تراه صبيًا للأبد.

صار پيتر منذئذٍ أيقونة لليفاع والبراءة، وهذا ما دفع جيمس ماثيو بـاري إلى تكليف النحـات جـورج فرامتـن بصنع تمثـال لـپـيتر نصـب ليلًا في كنغزتن غاردن، ليكون مفاجأة لأطفال لندن في إجازة الأول من مايو، وتخليدًا للصبي الذي لا يعرف الهرم بطريقة أخرى.

البلاد التي يأتي منها پيتر هي بلاد الأحلام، نـفرلانـد، التـي أتيـنا منـها كلنا ذات يوم، ونسيناها في اللحظة التي كففنا فيـها عـن الإيـمان بالأحـلام وغبار الجنيات وبقدرتنا على التحليق عاليًا.

تمنحنا الرحلة مع پيتر پـان الفرصـة، مـرة أخرى، كـي نعود إلى تلك الجزيرة التي لا تفصل فيها مسافات مضجرة بين المغامرة والأخـرى، وتغـدو حقيقية للغاية قبل خلودك للنوم بدقيقتين.

ماذا تنتظر؟
خذ المنعطف الثاني نحو اليمين، ثم تقدم للأمام حتى الصباح!

المترجمة









www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com